Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

امجايني

معابد الريف

أسامة الشقر

١٥٨٧٢
Ashqar

الهجاين

معابر الريف

أسد الأشقر

مطابع صادر ريحاني ، بيروت – تلفون ٦٢– ٦٨

(RLIN)
PJ7814.
.S459M32
1943

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 02284516

I

خرجت قرية مرياع من الليل البارد ، القاتم ، فبانت باشجارها العارية وبيوتها المبللة ، كأنها كانت تستحم طيلة الليل بالامطار ، وغدت الآن تنتظر الشمس لتنشف الماء عن عريها . فهي مقفقفة ، صامتة ، تحنُّ الى لمحة من انوار صنين المبكرة ، وتشكر الله على الحطب الموفور لابنائها ، يحرقونه بمسرة في مواقدهم .

اما هي فسيطول اشتياقها وحنينها الى الشمس المنعشة ، وقت تتبعثر هذه الغيوم المتلبدة الآن فوق صنين كأنها اسوار نقالة من القتوم ، تتبع الشمس في ارتفاعها ، وتصدُّ امواج الانوار لتطيل ارتعاش مرياع في بردها .

ولكن مرياع لا تخاف الشتاء والبرد وان تراءت كانها تفتش عن الحرارة ، فهي قد تعودت الشتاء في الجبال لا تهاود ولا تهادن . واذا هدنت السماء عن تهطالها ، كما كانت منذ دقائق ، فلتنطلق الرياح من آفاقها وتتصادم في كروم القرية وبين بيوتها ، وهكذا تتمرن مرياع على الهواء الطلق المصقع هاوياً من الجبال البيضاء وتستغني عن الحرارة في الشتاء .

تنهض مرياع على رابية متعالية ، فتقوم بيوت على قمتها ، وتتوزع بيوت في جوانبها وتنتثر اخرى على حدود الكروم والاحراش . فبيوتها تشرف على كل جوانبها كانها حراس على كل ناحية من نواحيها الجميلة .

الحركة لم تتوزع بعد في القرية . والناس نهضوا من نومهم منذ ساعتين او اكثر ، وكل عيلة « تعمل صبحية » حول جمرات التوت العامرة . والناس يتكاسلون في صباح كهذا لا ينتظرهم فيه اي عمل ضروري . والتكاسل عند الجبليين

النشيطين ، الذين يسخّرون كل عناصر الفصول لكدهم واجتهادهم ، هو نوع من التفكهة النادرة ، لا يمارسونها الا ساعات كل اسبوع ، فقط في الشتاء .

حركة الدروب في القرية ما تزال هادئة ، اما اذا تشوفت الان من احدى الشرف او السطوح ، تلمح افراداً طلعوا في برهة صحو يجدلون سطوحهم المتربة بالحوارة ، فهم يخافون الوكف المزعج في « عيانة » طويلة . وان اصغيت لا تسمع الا زقزقة الاقواس في ثقوب المحادل ، كانها تحث المتكاسلين ليسرعوا الى سطوحهم ، والحدالة لا تكثر على السطوح المتربة .

هذا يوم احد ، وقبل ان تنتهي الصبحية ، ويهب الجميع الى لبس ثيابهم ليذهبوا الى الكنيسة ، عاد الجو الى التلبد ، وهطلت الامطار بصورة لا تبشر بصحو قريب .

هو يوم من تلك الايام الباردة ، الممطرة ، تتجمع فيها العيلة الريفية في غرفة الشتاء حول النار كالدجاجة مع فراخها . هو من تلك الايام التي تسجن الريفيين في بيوتهم ، قابعين ، مستكنين ، يتنعمون ، حتى بعد الصبح ، بهذه الساعات الفارغة تفرض عليهم الراحة فرضاً يتلذذون بجو العيلة المرح ، وقد امتلأت الدنان والاهراء بالمونة الكافية .

ولكن البيوت ، في صباح كهذا تعبق بكل العواطف العائلية الصغيرة ، فيتحوّل السجن الى اجتماع يشتاقه الريفيون منذ الصيف .

في وقت كهذا تحكي البنت حكاياتها الخاصة ، ويروي الابن اخبار القرية المتنوعة . يعطي الاب بلاغاً عن موسم الفلاحة ، محذراً نشاط جار يسبق الجميع باشغاله ، ومنتقداً آخرين لكسلهم وتوانيهم . اما الام فتغمر هذه العيلة المحبوبة بنظرات الحب والحنان وتشعر ان الغبطة تفور من اعماق قلبها .

وبينما القريه هادئة كل هذا الهدوء غارقة في تأملات الشباب ، ثملة باحلام الفتيان واماني العذارى ، تتبعثر في اجوائها هموم الشيوخ ونقيق العجائز ، دق جرس الكنيسة .

هذا يوم احد ، يجب فيه الذهاب الى المعبد . وهذه الحلقات العائلية ، المعقودة

في زوايا البيوت تتحول في الكنيسة او في ساحاتها الكبيرة، الى جلسة قروية عامة، تصبح فيها القرية شبه عائلة واحدة ، في فترة قصيرة .

في يوم ممطر كهذا لا يحضر الجميع الى الكنيسة ، ولا تعقد وقفة الساحة ، امام باب الرجال . ولا يفسح للفتيات ان تراقبن حركات الفتيان وجلساتهم وملابسهم . ولا يتاح للشبان بمسارقة نظرات خاطفة في ناحية من النواحي بينما هم يدخلون او يخرجون من المعبد .

لم يأت اليوم الى الكنيسة الا الكهول والنساء وبعض الشبان ، وقد انصرفوا في اخر القداس او فور انحلاله ، ليعودوا بسرعة الى النار اللاهبة ، الى الترويقة العامرة قرب الموقد ، الى شي البلوط والكستناء ، الى الاحاديث العائلية الممتعة .

اما بونا الياس ، كاهن الرعية ، فقدّس بسرعة لان البرد كان قارصاً . وقبل ان ينتهي من نزع ثياب القداس ، ومن صلاة دقائق معدودة امام المذبح ، كانت الكنيسة فارغة من المصلين . فقد اغتنموا فرصة الصحو واسرعوا الى بيوتهم خوف ان يفاجئهم المطر في الطريق، اذا تأخروا كالعادة ليسلموا بعضهم على بعض ويقبلوا يد القسيس الطاهرة .

وكان سرور بونا الياس بهذه الصحوة اكبر من كل سرور . فقد فكر ، وهو يسكر باب الكنيسة ، بتلك البقرات المسكينة ، المزروبة في مرحها ، المربوطة الى معالفها منذ ثلاثة ايام متوالية وسار مسرعاً ، هو ايضاً ، ولكن لقصد غير قصد اهل القرية كلهم .

II

— خذ الغذاء ، يا جريس ، والحقني الى « المطل » قد توقف المطر وليس في الجو ما يخوف ، قال بونا الياس ، مخاطباً ابن اخيه ، ثم لف شحيمته العتيقة بجلدتها الطويلة وتقدم الى طاقة قرب النول وضع فيها كتاب صلواته . وبعد ان مشط لحيته باصابعه ، وتأمل هنيهة كأنه يستعرض في فكره ما يمكن ان يحتاجه في البرية ، توجه من قبو الشتاء الى المراح . هناك فك الابقار كلها وساقها امامه ، ولما وصلت الى مفرق الطرق ، قرب البيت ، توقفت لان بونا الياس تأخر هنيهة عنها ، ولكنه لحقها بسرعة وهول عليها ، بلطف ، بعصاته وهو يقول لها « روحي على المطل »

في الكنيسة تمم بونا الياس كل واجباته نحو الرعية ، وفي البيت اعطى تعليماته لابن اخيه جريس ، وانصرف الى العمل الذي يعده هو الجزء الاكبر من صلواته الدائمة

لم يتناول ترويقته كسائر الناس ، بل اخذ رغيفاً من المعجن ، وضع فيه قطعة من الجبن ، وحبات من الزيتون الاسود المسبَّح ، ثم سرح مواشيه ومضى ، لا يأبه لاعتراضات امرأة اخيه .

وقد عجل وغادر البيت مع ابقاره دون ان يراه احد . فهو يخشى السنة الناس ويتحاشى انتقاداتهم الجاهلة .

ومن عساه ان يراه في هذا اليوم ! خصوصاً وبيته منفرد الى جانب القرية الشمالي يتاخم الاحراش والكروم . وادنى بيت اليه من بيوت القرية يبعد مئتي متر على الاقل .

كانت الابقار تعرف دربها ، عندما تسرح وتترك لغريزتها ، فهي باشارة بسيطة

من اهل البيت تتجه نحو « المطل » ، الكرم الواسع ، الكبير ، الذي يشتغل بنقبه بونا الياس واخوته منذ ثلاثين سنة . وقد اطلق عليه هذا الاسم لانه يشرف على البحر ، ويظهر دانياً من امواجه ، مع انه يعلو خمس مئات من الامتار ويستمتع بمناخ الجبال البارد .

ويقع كرم « المطل » في اطراف مرياع الغربية ، تنحدر من جانبيه الغربي والجنوبي احراش الصنوبر ، وتحاذيه من الشرق والشمال كروم القرية البائخة الاخضرار بالنسبة الى وريف اغراسه وانتعاش ارضه .

والواقف على اسواره العالية ، مواجهاً البحر ، يتبع نظره سلسلة من الوهاد الراكضة ، تصل سريعاً الى بساتين البرتقال في سهول السواحل الضيقة . وان تطلع الى الشرق بانت مرياع تبعثر بيوتها بين بساتين التوت المحدقة بكل بيت ، وظهرت قمم الجبال كأنها تشرئب الى الشواطىء . اما الشمال والجنوب فيختفي الاول وراء ادواح الزيتون العتيقة ولا تظهر في الثاني الا قرى بعيدة تتبين منها اشياء مبهمة .

مشت الابقار على درب المطل تلتهم الاعشاب المبلله ، يمنة ويسرة ، فهي عطشى الى الخضرة ، تأكل التبن (والجزة) منذ ايام ثلاثة . وسار بونا الياس على مهل وراءها ، لا يزعجها ولا يدلها على طريقها ، اذ هي تعرف هدفها ، تذهب اليه يومياً منذ سنين : هو الحرش المجاور للمطل حيث ترعى طيلة النهار حرة طليقة . وعند المساء لاول نداء من الراعي ، تأخذ سربها نحو البيت ، وتتابع سيرها الى موحها بدون اية عناية .

منذ ثلاثة ايام يستمر المطر ، لا ينقطع الا فترات قصيرة ، سواء في الليل ام في النهار .

واكثر القرويين ، وخصوصاً الشبان منهم ، يفرحون بهذه « العيانات » الطويلة ، يحيون لياليها بالسهرات المتأخرة والالعاب الصاخبة ، حول المواقد العامرة بحطب التوت وجمراته المشهورة بوهجها القوي الصامت ، يتنفس الجبلي هواءه الحار

بلذة كأن فيه نسمة خفية .

كان بونا الياس يخشى هذه الامطار الطويلة المملة ، فهي تعطله مع اعضاء العيلة عن الشغل ، فيتعود اشقاؤه وابناؤهم لعب الورق والسهرات والكسل ، وتذهب المواشي بالتبان الكبير وما فيه من قناطير الجزة والتبن وقشر التوت والحشيش اليابس .

فالتبان عزيز عليه كمونة البيت تماماً ، ويجب ان يوفره بتسريح المواشي الى المرعى كلما سمحت ايام الكوانين ، ولو ساعة في النهار .

والمواشي قلتهم كثيراً في الشتاء ، ساعة من المرعى لعشرة رؤوس من البقر تعني توفير عشرة ارطال من التبن والجزة ، وهذا يجمع كثيراً على مدى الشتاء ولياليه الطوال . ولولا نشاط بونا الياس وسيطرته المطلقة على السواعد العاملة في البيت لكان التبان يفرغ قبل انتهاء الكوانين ، ولأمسى امراً مستحيلاً عليه ان يشتي عشرة روس من البقر الحلوبة العيالة

يسيطر بونا الياس على بيت تتفرع منه عيال ثلاث ، تعد خمسة عشر نفساً ، تعيش عيشة واحدة ، وتطيع اوامر شخص واحد .

هو لا يسيطر بسطوة ظاهرة وشخصية بارزة ، فليس له سطوة ظاهرة الا على العجول القوية ، عندما يكبسها على الفلاحة ، فرغم نحافة جسمه وقلة قوته ، تخاف العجول صوته العالي ، ومساسه الطويل ، وقبضة يده المتمرنة على مسكة الصمد الثقيل . وقوة شخصيته تظهر في ما ينصب من اغراس الزيتون والكرم والتين ، وفي ما يطعم من الاشجار عامة . فمطاعيمه لا يخرم واحد منها ، بل تفرخ كلها وتنمو كأن الحيوية تتسرب من انامله الخفيفة وقلبه العطوف .

كيف يسيطر اذن على اخوة ثلاثة ، كلهم متزوج وله عيلة ، وعلى ابناء اخوة عديدين غدوا كلهم شباناً وصبايا !

هو لا يتعمد النفوذ والسيطرة . هو يجهل انه يسيطر ، ولا يعلم لما يطيعه الجميع .

هو يسيطر بالفضائل تتدفق من نفسه ويديه تدفق المياه من قلب الارض .

هو يحكم بالمحبة ومحبته لها مظاهر غريبة ومعان خاصة . محبته لا تظهر

بازيائها المعروفة عند الناس ، فهي لا تعرف العواطف واللطف والقبل . لا تفهم خفة الاولاد فتتساهل معها ؛ وعواطف الشباب فتراعي جموحهـا ، وحاجات الرجال والنساء فتغض الطرف عنها .

محبته هي الشغل الدائم ، المتواصل . والشغل في نظره لا يكون الا في الارض . الاطفال عنده اغراس تظهر اوراقها وتنطلق في نموهـا ، والشبان شجيرات مطعمة لسنة او سنتين ، تبدأ بارسال اثمارها مع اغصانها النضرة . وكل ما في الحيـاة من حداثة وفتوة ، وشباب ورجولة ، يجب ان يسفح ، حسب شعوره ، على اصل الشجرة الام ، وهي ترد اتعابنا خيرات مضاعفة .

هو يحكم البيت باتلاف كل حياته مجاناً على صدر هذه الارض . ولا يستثني الا ساعات قليلة يواجه فيها آله الناس في الكنيسة ، اما الهه ، هو ، فيراه في كل زمان ومكان . هو يحكم بالمثالية الكاملة التي لا تعرف غاية الا صلة الارض .

والارض ملك اشقائه ، ليس له منها الا ما يغمر قلبه من غبطة العمل والتضحية فالتضحية هي هدفه ؛ وهي منبع قوته ونفوذه على الجميع .

هو يسوق الجميع الى العمل بهذه القوة الغزلاء فيطوعون له طوع انامله عندما يطعم ويقلم .

وقد فهم الجميع في البيت ان القسيس يعمل من اجلهم ، ولا يطلب الا قوتـه اليومي ، مؤلفاً غالباً من الخبز والزيتون والبصل ، وقليـل من التين المطبوخ او الدبس . نادراً ما يرسل اليه صحن من المجدرة او البرغل المطبوخ بالقورمه

وهم يقولون غالباً في نفوسهم : فلنستفد منه طالمـا هو يشتغل ، فلنطع اوامره لمصلحتنا ، ولنقتبس من اختباراته الزراعية ، وعندما نسأم منه نرسله الى الدير .

كان من المألوف ، طبقاً للانظمة الرهبانيـة ، ان يكون بونا الياس في ديره . فقد نذر حياته بمسراتها واتعابها لخير الدير . وقد عاش فعلاً خمس سنوات في الدير ، حتى وصل الى الرتبة الكهنوتية . وكان مشهوراً اثناء اقامته في الدير بتقواه وغيرته على املاك الرهبنة وكل مقتنياتها . ولكنه راى انه يعمل ويكد بينما غيره ينهب

ويخرب . وهو يوفر ويحافظ بينما غيره يبذر ويُعطي سراً وجزافاً . رأى اتعابه تذهب هدراً الى حيث لايجوز ان تذهب ، واحس ان حبه للارض لايرتوى في هذا المحيط الفوضوى ، حيث يشتغل الناس كانهم مسخرون ، وحيث تتلف الاتعاب والاراضى لفقدان العناية الكافية والعمل المخلص . لذلك فكر بونا الياس بالعودة الى قريته منذ عشرين سنة ، يخدم اهلها مجاناً في مراسيمهم الدينية ، ويعتكف على الشغل في اراضي اجداده ، يهندسها كما يريد ، ويقسط اغراسها كما تعلمه اختباراته الطويلة ، ويعطي اهل القرية امثولة الكد والنشاط . فقدم الاعذار العديدة لرؤسائه والح اقرباؤه واهل قريته لاستقدامه اليهم ، حتى اذن له اخيراً بمغادرة الدير ، دون ان يعد خارجاً على النظام الرهباني المألوف .

III

وراح جريس يعد الزوادة مع اخته مريم متأففاً ، متذمراً ، بعد ذهاب عمه القسيس ، وطفق يخاطب نفسه على مسمع من شقيقته ، وربما من والده :

« ما هذه الحياة المتعبة مع هذه الرجل ! الا يعرف احداً ولا عيداً ، ولا بطالة ! اي مجنون يذهب الى الكروم في هذا الطقس الممطر ! وهل ترعى البقر الحشيش مغموراً بالمياه ! الناس لا يخرجون بر بيوتهم ونحن ، يجب ان نقضي النهار كله في « المطل » ، وما عسانا ان نفعل هناك !

« الارض وحل لا تدعس ، والحجارة رطبة لا تمس ، كي نقول انه يريد ان يعمر « الحفة » المهبطة ! وكيفما داروا لا يطلع في دربهم الا جريس ! كأن جريس مخلوق للشغل والتعب فقط ! كأن جريس لبس شاباً كبقية الشبان ! . » . .

وكان بوجريس جالساً قرب الموقدة ، يدخن نرجيلته ويجدل « شرعاً » للنير ، تتبعثر امامه ادوات زراعية من كل نوع ، ليستعرضها ويفحص حالتها . كان بو جريس في القبو الشتوي الكبير المفروش بالحصر البلدية تغطيها « البلس » الحمصية السوداء . وقد فرش ديوان واط الى الجهة الغربية من القبو على دائر الحيطان

الثلاثة ، وصفت المساند ملقاة على الحيطان ايضاً ، وقامت الموقدة الكبيرة قرب العامود ، منتصف القبو ، لتوزع الحرارة على المحل كله .

في هذا القبو كانت تقضي العيلة ايام الشتاء ، ولا يصعد احد الى الطابق العلوي الى الحارة المقطوعة غرفتين ، الا في الليل عند النوم . وغالباً كان بو جريس والقسيس يغفوان في القبو ، على الطراريح المفروشة قرب الموقدة ، حتى الصباح .

بينما كان بوجريس يقوم بعمله مستدفئاً ، مصغياً الى تافف جريس في « المد » ، وهو غرفة صغيرة مقطوعة عن القبو ، كان حنا شقيق جريس في المراح المجاور للقبو يقشر قطعة من السنديان المشوي على النار ، معدة لتكون صنداً احتياطياً .

سمع بوجريس كل ما قاله ولده ، فامتعض من كلام لم يسمعه بعهد من هذا الابن المطيع ، الرزين ، وفاجأه موبخاً ، عاتباً .

— « عافاك ، يا جريس ، عافاك ! يحق لك ان تحكي هكذا !

« فعوضاً عن ان تكون قدوة صالحة للجميع ، انت تغضب وتتذمر ! عوضاً ان تشكر هذا الراهب المسكين الذي ترك ديره وجاء يكرس حياته لاجلك انت واخيك ، انت « تربحه جميلة » ، وتعمل كانه يسخرك لمصلحته . عيب عليك ، يا جريس ! لا تخلِّ احداً يسمعك ! نحن كلنا يا ابني خدم لكم ، ولولاكم لكنا نقضي كل ايام الشتاء مرتاحين قرب النار . نحن نشتغل لمستقبلكم ! »

ثم تابع كلامه بصوت فيه اللين والعطف والتعزية ، وقال :

— تعال الى هنا يا جريس ! ... نحن ، يا ابني ، لا نقدر ان نعمل مثل غيرنا . اتريد ان نسلك سلوك الجهال الطائشين ! الفلاح يا ابني لايقيمه الا ساعده واجتهاده . والا تأخرت حاله وباع ارزاقه . هذه الجبال لا يعيش فيها الا النشيطون الدربون . وقد اعطانا الله هذا القسيس بركة ونعمة لبيتنا . لولاه لكانت ارزاقنا خراباً . ولكانت عظام جدك الخوري الياس تغضب علينا .

ثم تحمس بو جريس وقال :

— « لقد طلق الدير والراحة ، والاكرام ورغد العيش ، وعاد الينا ليساعدنا ، ليهبنا حياته كلها ، ليشعل وجوده شمعة تضيء طريقنا ! هو اب وام واخ ومرشد ، كرس

نفسه وجسده قرباناً لنا مدى الحياة . فاتكل على الله يا ولدي ، واياك ان تخالف لعمك امراً !

« ثم تعال ! . . . قرب الى هنا ! . . .

فتقدم جريس وجلس قرب ابيه .

« لا يمكنك يا جريس ، ان تقدر ما هي عواطف عمك نحوك . فهو عادل بين الناس بقدر ما هو ظالم لنفسه . اتعلم ما قال لي امس ! . . . قال لي ان « المطل » يجب ان يكتب باسم جريس ، لانك انت عاونت بنقيه طوال خمس سنين قبل ان يبلغ اخوك حنا ، ويشترك بالشغل معنا . هو يعتقد ان لك الحق بنصف المطل على اقل تعديل ، وانا من رأيه . »

— ما لك ولهذه الافكار ، يا ابي ، انا لا افرق نفسي عن اخي وابناء اعمامي . وارزاقنا كثيرة والحمد لله ، تكفي الجميع . لقد تزوجتم انت واعمامي وربيتم عيالا ولم تقسموا شيئاً . اتقسمون لنا ونحن ما نزال في كنفكم ! . . .

« انا لم اتذمر يوماً من الشغل ، ولكن « كل شيء زاد بالمعنى نقص » ، الا يجب ان نراعي نحن مثل غيرنا ! ماذا يقول الناس لو رأوا عمي في المطل في يوم كهذا ! »

— « هذا طبعه من الاول . لا يعرف الا الصلاة والشغل ، فهل تريد ان تغير عقله في آخر ايامه . دعه يفعل ما يريد وهو يدبر مسائله مع الرعية . اما في ما يختص بك فلن يكون الا على خاطرك ، والذي بفكرك سنتممه لك . فقط لا تزعل لي هذا القسيس المسكين الذي ربانا جميعاً . . . لا شك انه ينتظرك . . . اذهب الآن . وكما قلت لك ، كن كما عهدتك طائعاً ومحترماً »

حمل جريس زوادة النهار ، بعد ان لبس عباته الحمراء الجبلية وتوجه نحو المطل . كانت الساعة قاربت الحادية عشرة ، والسماء استأنفت المطر . لم يكن جريس شاعراً بهطل الامطار ، وتحول الطريق الى سواق صغيرة ، بل كان يمشي الهوينا متأملا بما قاله ابوه . وقد اثر به شعور القسيس نحوه الى آخر حد . هو لم يكن يجد في عمه ، الى ذلك اليوم ، الا رجلاً ، قاسياً متذمراً ، يتهم الجميع بالكسل وقلة الشغل ، ولا يعترف

بتعب احد من العاملين معه، حتى ولا بتعب جريس . اما اليوم فقد ظهر له في شخص الراهب رجل جديد يقدر اتعاب كل انسان حق قدرها ...

ثم ماذا يعني ابوه بقوله انه سيتمم كل ما بفكره ! اهو يعني ابنة عمه بو طنوس ، تلك التي احبها جريس واحبته منذ الصغر ، ولم تمكن الظروف من بلوغ امنيـة هذا الحب المتبادل ! لا شك ان اباه يعني ذلك ، وهذا ما افعم قلب جريس غبطة عميقة ، وجعله يمشي على مهل غير آبه للمطر ، ثملاً باحلام عذاب تنبهت فملأت قلبه وخياله

لم يخرج جريس من حلمه الا عند رأس المطل . هناك رأى الابقسار راعية في حرش الصنوبر ، ولكنه لم يسمع لعمه حساً . دخل الكرم ونزل ادراج حفافيـه متوجهاً نحو السقيفة حيث يمكن ان يكون القسيس محتمياً من الشتاء ، وقد ظن جريس انه سيجد مهرباً لتأخيره عندما يرى عمه معطـلاً عن العمل ، ينتظر الصحو ليأتي باية حركة . ولكن ظنه كان مخطئاً . كان القسيس قد جبل كمية من الحوارة جعل منها طيناً ، وبدأ يصنع مقعداً كبيراً يمكنه عند الحاجة ان يضع عليه حصيرة وطراحة ويحوله الى سرير .

— « الآن جئت ، يا جريس ، بادره الراهب لدى وصوله ، كدت انتهي من الشغل الآن ! ارأيت ماذا صنعت لك في هـذا الوقت ! غداً تأتي بحصيرة صغيرة ، وبطراحتين وغطاء عتيق ! حتى اذا اضطررنا الى النوم هنا ، لا ننام على الارض . خذ هذه الاوتاد ودقها في حيطان السقيفة لنعلق بها كل ادوات الشغل . الا ترى انها تصدأ على الارض .

« ما لنا وللبقاء في البيت يا جريس ! الحركة بركة دائماً . ارأيت البقرات كيف ترعى بقابلية تحت المطر . »

— وهل نحن مقصرون ، يا عم ! ... الا يجب ان ترتاح انت قليلاً ولو على اعين اهل القرية ... فالناس كلهم يقولون انك « كايش » « وكابان » على الشغـل ، وانك تريد ان تأكل الدنيا ، والدنيا اكلت كثيرين من قبلك ، ولم يأكلها احد ، الناس يحكون كثيراً ، خصوصاً وانت كاهن ، من رجال الله ، لا من رجال الدنيا .

— لا تبال بما يقوله الناس ياولدي ! الناس لا يفهمون الا قشور الاعمال الصالحة ،

اما جوهرها فانهم بعيدون عنه ، ولا يدركون الا رموزاً عن الله ، اما حقيقة الله فضائعة عندهم . هم يرون الصلاة في نصف ساعة يقفونها في الكنيسة كل اسبوع ، اما الصلاة الحقيقية فهي تمجيد دائم للآب في الاعمال الصالحة ، والارض هي اطهر مكان تلامسه يد الانسان وتبقى نقية ، بعيدة عن كل دنس ، فليقل الناس ما يشاؤون ، انا اشعر انني اقرب البشر الى الله في هذه البرية ، وان صلواتي على المذبح لا تعوق بنقاوتها وطهرها شغل يدي في هذه الارض .

« عندما يريد اهل القرية ان يطعموا اغراس كرومهم لا يقولون انني اشتغل اكثر من اللازم ، بل يفدون قبل الفجر طالبين ان ارافقهم الى الكروم ، حتى ايام الآحاد والاعياد .

« ولكن مالي نسيت المسألة الهامة ! تعال وانظر . الحقني لترى منفعة مجيئنا اليوم الى هنا ! ... هات الرفش معك . لقد صحت ! ويمكننا ان نشتغل الآن . »

وترك القسيس السقيفة ، يتبعه جريس حاملاً رفشاً لف عليها حبل طويل .

— تعال وانظر كيف خندقت هذه الحفة التي اشتغلنا بعمارها اسبوعاً كاملاً . قال بونا الياس ، عندما توقف قرب حفة عالية ، حديثة البنيان ، حفر السيل في هذه الايام الثلاثة الممطرة خندقاً صغيراً في احدى جنباتها فامست معرضة للانهيار في تلك الناحية .

واكمل : « اذا انهارت الحفة هنا . عند هذا الخندق ، ربما تصدعت كلها . ان العناية الالهية جاءت بنا الى هنا . ليلة مطر اخرى ، وهي على هذه الحالة ، تذهب بتعب ايام عديدة . هات الرفش وشد انت بالحبل لنطم هذه الحفرة . »

واخذ القسيس يجرف التراب ويرميه في الجورة ، وجريس يشد بالحبل دون اي تعليق على كلام عمه ، لانه اقتنع بان الحفة كانت بخطر الانهيار وان المجيء الى الكرم كان نافعاً جداً .

— ان عين الفلاح يجب ان ترعى الرزق ليل نهار ياجريس ، والآ دب فيه الخراب وانت لاتدري . ان شغل خمس دقائق الآن يوفر علينا شغل ايام . تأمل ، لو سقطت هذه الحفة ، ما كانت تكلفنا من العذاب والتعب .

وبقي جريس صامتاً ، كأنه يلوم نفسه على ما بدا منه من التأفف وقال في سره .

« من ليس له كبير فليشتر كبيراً »

بينما كان بونا الياس يتغدى مع جريس في السقيفة ، توقف المطر المتواتر منذ ايام واياليي .

وبدا الجو رائعاً ، تتناثر في ارجائه الشاسعة فوق الجبال ، بعض غيمات نحيفة ، شفافة ، لا تخيف الفلاح الجبلي ، خصوصاً من كان مثل بونا الياس .

والشمس طلعت بعد انزوائها وراء الغيوم المتلبدة كما يتزوي الحب في قلب متيم داهمته الاحزان العارضة . وبان المطل زاهياً باشجاره الفتية يستحم بالنور الحار ويرتع ضمن اسواره العملاقة كانه في نعيم !

— ارأيت كيف اصطلح الطقس ياجريس ! قال القسيس مسروراً . ثم مشى نحو الحرش حيث ترعى المواشي وتبعه جريس .

— انظر بقراتك كيف امتلأت بطونها ، تابع القسيس ، وسترى ان حليب العنزة هذا المساء ، سيكون غير ما كان امس .

« تعال لنجلس قبالها ونتشمس نحن ايضاً »

ثم صعد على حيط السور من الجهة الغربية ، وصعد وراءه جريس . ومشيا على السور صاعدين حتى اصبحا مشرفين على الكرم من رأسه الى قدميه ، والمطل كبير لا تقل مساحته عن خمس فدانات كبيرة ، فلاحة بوجريس وفدانه — احسن فلاح واقوى فدان في المنطقة . فالكدنة ، فلاحة بوجريس ، هي كدنة وربع .

اخرج القسيس منجله من تحت سيره الاسود العريض ووضعها قربه ، بعد ان جلس على الحائط . ثم القى بحبل الشعر قربها . وحبل الشعر والمنجل لا يفارقان بونا الياس ابداً . فالمنجل هي سلاحه المشحوذ ، المسلط دائماً على كل نبتة طفيلية حملتها الطبيعة فنبتت ضمن جدران الكرم !

والحبل هو رفيق المنجل وسلاحه الثاني ، لا يمكن ان تلسعه حية رقطاء في رجله ، فهو يشد الحبل على فخذه ليمنع السم من الجريان .

ثم هو لا يعلم اي متى يجمع حملة من الاعشاب اليابسة في الحرش حيث يرعى

البقرات ، فيحزمها حالا ويحملها الى الكرم ، او الى البيت . لذلك لايترك بونا الياس الحبل والمنجل الا عندما يذهب الى الكنيسة . اذ ذاك تحل الشحيمة محل الاثنين معاً .

— يا ليتك لحقت جدك بوشاهين وقت كان يشتغل يا جريس ! انت عرفته شيخاً عاجزاً لا يتحرك من البيت لو كنت عرفته شغيلا لكنت تعلمت الشغل !

« نحن ! نحن كسالى بالنسبة اليه . أتعلم انه في ايام عزه كان يرجع الى البيت مرة في الاسبوع ، ليغير ثيابه ويعود الى هنا ، الى هذه السقيفة ، حيث كان ينام ، نحو نصف السنة ، على « بلاس » عتيق ويتغطى بعبائته .

« والا كيف قدرنا ان ننقب ارضاً كهذه ! لا يمكنك ان تتصور كيف كانت هذه الارض قبل نقبها . كل اهل القرية كانوا يسخرون من جدك عند ما باشر بالنقب : « ما عساك ان تعمل من هذه الشحارة ! الشوك والعليق لا يعيشان فيها ! » هكذا كانوا يقولون له .

« اما هو فلم يكن يتكلم كثيراً ، بل يشتغل ويترك الناس يرجعون عن اقوالهم بعد ان يروا نتائج شغله .

« اترى الحائط الاول ، تحت ؟ حيث تبدأ النقبة ... هذا عمّره وحده ، بدون اي مساعد ، لاننا ، نحن ، كنا مشغولين في ناحية ثانية وكانت الايام ايام قز والشغل فوق رؤوسنا . »

— هل كانت هذه الارض حرشاً كالارض المجاورة ! قال جريس :

طبعاً ! كانت مثل جاراتها ، مغطاة باليرز والصنوبر والسميسم والبلان والصخور الشحارية !

« وهذه الارض تجري ادوات الشغل كما تفعل المبراة بقلم الرصاص ! ... حتى ان العشب لا ينبت فيها بكثرة ، كما ترى الآن في الحرش المجاور . ولكن جدك استحسن ان يبقى هذا المطل والشمس تضربه من الشروق الى الغروب ، بدون غلة . فقرر ان يقطع الحرش كله وينقبه ، مهما كلف الامر . وقال : ان ما تشح به الارض من طيبة العناصر تعوضه الشمس . ولكن تأكد ان هذه النقبة قد

اكلت من عمر جدك عشرين سنة ؛ ومن شبابها اعز ايامها .

« انت لم تلحق الا القليل من التعب يا جريس . لقد جئتم ، هذا الجيل الجديد ، فوجدتم كل شيء حاضراً ، ليس عليكم الا ان تسوسوا ارزاقكم وتستغلوا . من عمر العاشرة الى الثلاثين بقيت اشتغل مع جدك هنا . ابوك واعمامك جاؤوا بالآخر .

« فعلى هذه الحفافي قطع من ظهري ، وفي هذا التراب نتف من يدي ، وفي هذه الاشجار حياة من حياتي ! انت تستصعب اذا وعيتك باكراً لترافقني الى الكروم ، ولو كنت اكلفك ما كان يكلفني جدك لرأيت الفرق كبيراً جداً . »

—« بدون شك ، نحن لم نفعل شيئاً بالنسبة اليكم . » قال جريس .

—« انا لا اقول لك ذلك لاربحك جميلة يا ولدي . بل لتعلم اشياء عن جدك . ولو اخبرتك عن جدي انا ، الخوري الياس ، لرأيت العجائب ! كل جيل يضعف عن جيل في هذه الجبال ، ولا اعلم السبب ! لا شك ان رغد العيش يعلم الكسل والخمول « نحن ما نزال اقوياء بالنسبة الى غيرنا ، انظر ارزاق اهل الضيعة كيف تهمل من سنة الى سنة !

« والشيء العجيب ، يا جريس ، ان جدك نقب هذا الكرم بدون ان يستكري فاعلاً واحداً . كان هو يشتغل بعمار الحفافي بينما كنا نحن ، انا وابوك وعماك ، نتقدمه بالنقب : فنقلب التراب ونعد الحجارة . كل هذه الاسوار قد بناها هو ، نحن كنا نقدم له الحجارة فقط .

« كم مرة كنا نسرب الى البيت مساء والحفة في نصفها ، وعند الصباح كنا نجدها تقريباً كاملة . كان يشتغل ساعات في ضوء القمر وحده .

« وبيت القصيد في قصة هذا المطل لم تعرفه بعد . اتعلم ان هذا المطل كان توتاً قبل عشر سنوات او اكثر قليلاً ! »

— «نعم» ، قال جريس ، «قد لحقت جلاليه الاخيرة . كنتم تقلعونها في ذلك الحين»

—« قد ادرك في اواخر عمره انه اخطأ بغرس التوت في هذه الشحارة . ولكن صعب عنده ان يقلع بيديه ما غرست يداه . فاوصاني ان ابدأ بالتقليع حالا بعد

موته ، وان انصب الزيتون الجبار الذي يعيش وينموا ويطعم في افقر ارض .

«هكذا كان ... وانت ترى زيتونات هذا الكرم تتفاوت باعمارها ، لاننا قلعنا التوت تدريجاً ، وشتلنا الزيتون افواجاً ، وقد دامت هذه العملية عشر سنوات اذا كنت تذكر ! »

—« اذكر جيداً ،وانا اشتركت في تنصيب «الجلالي» الاخيرة .» ، قال جريس .

—« انت تعرف الان كم كلفت هذه النقبة من تعب وعناية ، وتشعركم يجب ان تحافظ عليها . هي البركة الاخيرة من يدي جدك الكريمتين ! فترحم عليه دائماً واعتن بما ابقت لك يداه ، فترضى عظامه في قبرها !

— « الله يرحمه كم تعب وكد !

وانت ايضاً يا عمي تتعب اكثر من اللازم ، كأن كل نشاطه انتقل اليك . ولا ارى عند ابي وعمي سعيد غيرتك على الارزاق . » ، قال جريس

— ابوك كل عمره هكذا ! متى ترك « الصمد » والمساس لا يعود يصلح لشيء ، والفلاحة ليست صنعة النشيط والدرك ، بل فيها كثير من قلة الخواص . هي شبيهة بشغل العربجية ، تعود على الكسل .

«شغل الفلاح الحقيقي هو نقب الارض ،وعمار الحفافي ،وتطعيم الاشجار وتقليمها ، وعمك سعيد يحب المكاراة ، وهي بنت عم الفلاحة والعربجية . فالمشي وراء البغل والحمار لا يتطلب نشاطاً كثيراً .

« ان اتكالي هو عليك يا جريس لسياسة الارزاق . وانا سأقدر اتعابك واعلم ، قبل موتي ، ما يجب ان افعل من اجلك . »

— «انت ترى يا عمي كيف اشتغل ، وانا لا اريد شيئاً خاصاً لي . لا لزوم ان تفكر بذلك . ولكنك كنت قلت مرة انك تريد ان تعمر بيتاً صغيراً في « البستان » لاسكنه واياك ، فهل ما تزال المسألة بفكرك ؟ »

—«فهمت ما تعني ،وانا افكر بالمسألة . ولكن الا ترى يا ابني اننا ما نزال مسبوقين الان ،بعد ان انفقنا كل شيء لنقب اراضينا ! اننا نريد ان نعمل من قيمتك ، ياولدي لانك اول ولد يتزوج في البيت من الفوج الجديد . تمهل قليلاً وسيصير على خاطرك .

IV

بعد الغداء جدد بوجريس اركيلته ، وعاد الى سن ادوات الشغل من فؤوس ومناجل وغيرها . كان حد الموقدة ، تجلس قربه مريم وتشتغل في حياكة زوج كلسات من الصوف لاخيها جريس ، تشتغله بالسنانير العديدة .

ام جريس تخبز في المواح المجاور مع ابنتها الصغيرة حنة . وحنا ذهب بعد الغداء الى بيت عمه سعيد ، يقطع ساعة من الوقت .

— « طوّل اخوك جريس مع عمه ، يا مريم » ، قال بوجريس ، « لا شك ان عمك لا يريد ان يسرّب البقرات الان ، وقد اشرقت الشمس ، وجريس لا يريد ان يتركه وحده » .

— « دائماً هكذا ! كل الشغل على جريس ! كأنه هو مسؤول عن كل شيء وملزوم بالجميع ! فاذا كان هو كامل المروّة ، ايجوز ان يتركى عليه الكل ؟! هذه البقرات يجب ان تكون موزعة على كل البيوت . فاذا كان جريس لا يحكي ولا ينق ، لا يعني ذلك انه لا يتألم في داخله . وكنتم تقولون دائماً ان بفكركم عمار « حارة » في البستان لتزوجوا جريس وتسكنوه فيها ، ولكن سكتم هذه المدة ، لا اعلم لماذا » .

— « لا يقدر الانسان ، يا ابنتي ، ان يعمل دائماً ما يريد . لقد عاد عمك القسيس الينا كي يبقي هذا البيت متحداً بعياله الثلاث . وهو لا يريد ان نقسم شيئاً الا بعد موته . فهل تريدين ان نزعله لاننا نشتغل اكثر من غيرنا بقليل ؟ ! والشغل الذي نقوم به زيادة عن عميك واولادهما يعمله تقريباً القسيس ، ويساعده احياناً جريس . ولا تظني ان عمك ينسى اتعاب جريس فهو سيخصه بحصته او بقسم كبير منها .

« مسألة زواج جريس لم نهملها ، يا مريم ، ولكن الظروف لا تساعد الان . نحن طالعون من مشروع طويل ، دام عشر سنوات ، نقبنا خلالها كل اراضينا ، وانفقنا عليها كل ما كان معنا من المال . وقبل ان نرتاح ، على القليل ، سنة واحدة ،

لا يمكننا ان نعمّر ونزوج جريس . وانت تعلمين ان البنت التي يريدها جريس لا تعيش كيفما كان ! لا تقبل ان تعيش معنا » .

— « هي متفاهمة مع جريس وتعيش موقتاً اينما يريد وتريدون انتم . هي تحب جريس ولا تريد غيره . ولكن يأتيها في هـذا الوقت شبان عديدون احسن من جريس في نظر عمي بوطنوس ، وهي تخاف ، اذا تأخر جريس اكثر من اللازم ، ان يضغط عليها ابوها ويزوجها . الا تعلم انت كم يحب الجاه عمنا بوطنوس .

« والناس يعلمون ان معها مئة ليرة ذهبية خصها بها اخوها من اميركا » .

— « طيب سوف نرى يا مريم . ساكلم عمك القسيس بهذا الامر جديا . واذا لزم الامر نحكي لعمك بوطنوس ولمرة عمك ، كي ينتظرا قليلاً ، ام ان يقبلا بالخطبة على سنة » .

وبينما كان الاب والبنت في هذا الحديث العائلي السري ، سمع صوت من الخارج : « يا قرايبنا وين انتم » ثم طرق باب القبو ، ودخل بوطنوس ، نسيب بوجريس بدعسة قوية رغم عمره ، ودخل وراءه بوسليم احد وجهـاء القرية وهو من عائلة غير عائلة بوطنوس وانسبائه .

— « اهلاً وسهلاً ! اهلاً وسهلاً ! » ، قال بوجريس وهو يقف ، « هـذه مفاجأة جميلة ... تفضلوا !... الى قرب النار !... لمي معي هـذه الاغراض يا مريم ! ضجرت منها » .

— « دائماً في الشغل ! لا راحة ! ولا احد ولا عيد ! .. نسيتم الضيعة . والقرايب والكل ! » قال بو طنوس بلهجة العاتب .

— « نتسلى قليلاً ياعمي بو طنوس . كيف تريدان نقطع الوقت في الشتاء ! الفلاح يقدر ان يرتاح ! دائماً شغله فوق رأسه . وهذا الجيل المنحوس لا يتوقى شيئاً ! سلمت جريس الفأس الجديدة من ايام ليقطع حطباً ، فقطع بها حطباً يابساً وعطلها وصارت مثل المنشار ، تفرج ! » .

— « بسيطة ، بسيطة ! .. وكيف انت يا مريم ؟ نسيت عمك بو طنوس ؟ ونسيت كل شيء ! » قال بو طنوس ملاغزاً ، وهو يقصد ان عنده ابنه ، عريساً لها . ففهمت مريم مايقصد وقالت : « انت تعلم ياعمي بو طنوس اذا كنت انسى . ولكن الحق على الشتاء . »

— «اعتب على الجميع الا عليك ، انت بعزة سليمة تماماً !»

—« الله يعزك ، ياعمي بو طنوس » قالت مريم بحياء .

—«كيف العيلة كلها يا بو جريس»! قال بو سليم ، «اين الشباب ؟ اين القسيس ؟ كيف ام جريس ؟ »

—« كلهم بخير ، الله يسلم خاطرك . كيف جرى وشرفتنا »، اجاب بو جريس ولم يفسح بو طنوس المجال لبو سليم بالجواب ، بل قال :

—« اين القسيس ، نريد ان نراه قليلاً ! »

—«اتعرف ان القسيس يقعد في البيت! من يعلم اين هو الان ، يمكن ان يكون في « الصوانة» او في البستان، او في المطل . اخذ البقرات، ولحقه جريس قبل الظهر »

— « البقرات ! في هذا اليوم ! ما هذه الاعمال يا ابن عمي ! ... اما عاد يعرف هذا الكاهن، لا عيداً ، ولابطالة ، ولا رعية ! انسى ربه ورتبته الكهنوتية المقدسة وتعبد للشغل ، كأنه يريد ان يبلع الدنيا ! ...»

— « يا الله ! كم اردد عليه هذه الكلمات ! ولكن عبثاً ! » قال بو جريس .

— «عفواً يا عمي بو طنوس » قال بو سليم مستأذناً بالكلام . ثم التفت الى بو جريس وقال :

—« نحن نعلم ، يا بو جريس ، نوايا القسيس الطيبة وضميره الحي ، وقلبه الطاهر ولا يهمنا اشتغل ام لم يشتغل . ولكن على اعين الناس ، يجب ان يحافظ القسيس قليلاً على مركزه الكهنوتي . من زمن طويل يضج الناس ويلغطون حول هذا الموضوع ونحن نسكتهم . ماذا يقولون اليوم لو علموا ان القسيس يقضي نهاره بالمطل في رعاية البقر ! ان ذلك لا يليق بقسيس محترم كبونا الياس ! الضيعة كلها تلغي بحديثه وتقول اذا كان يريد ان يكرس حياته للرزق ، فليذهب الى الدير وانت تعلم ، يا بو جريس، انه لولانا لما كانت تسمح له الرهبنة بمغادرة الدير كل هذه السنين . فنحن نقول لرؤسائه دائماً ان رعيتنا لا تتفق على كاهن غريب، وان الاصلح لنا هو بونا الياس وعلى هذا الاساس تتساهل معه الرهبنة .»

—« يا مريم اعملي من قيمة عمك بو طنوس وعمك بو سليم . ذوقينا التينات ..»

فاسرعت موريم حالا الى المد . اما بو طنوس فاعترض وقال : « لا لزوم ان تتعذبي يا موريم ، نحن لسنا غرباء ... »

— «التينات طبخناهم لنا وللقرايب ، لا للغرباء ! ... لنرجع الى حديثنا بالحقيقة صرت سامعاً تسميعات عديدة وانا ساكت التحمل . ان قضية بونا الياس صارت حملاً علي ، وقد حاولت اقناعه بترك الشغل فلم يقتنع . فالان اذا كانت لا تريده الرعية كما هو فليرجع الى ديره . انا لا اقدر ان اقنعه . »

وما اتم بو جريس كلامه حتى سمع صوت جريس يقول : «اووهُوجوا اعتر ، جوا ! »

— «هذا صوت جريس ولا شك ان القسيس آت معه . فتكلموا معه نهائياً بهذا الامر» قال بو جريس .

— «بدون شك ، اريد ان اضع حداً لهذه المسخرة ! » .. قال بو طنوس بجدة .

بعد هنيهة دخل بونا الياس ، مبلل الثياب ، ينقط الماء من لحيته ويتصبب العرق من جبينه ، وعندما رآى بو طنوس دب الهم في ركبتيه ولم يتوسم خيراً في هذه الزيارة ، يوم وحل وشتاء ، ووقت راحة وانزواء لامثال بو طنوس ، ممن قاربوا الشيخوخة .

— « اهلاً وسهلاً بعمنا بو طنوس ! » قال الكاهن وهو يدنو من نسيبه مسلماً عليه وعلى بو سليم .

— « اهلاً وسهلاً بك ! » اجاب بو طنوس ، « الله يعطيك العافية ! هل شبعت شغلاً وشتاء ووحلاً اليوم ! »

لم يجب القسيس بل توجه نحو النول فعلق الحبل والمنجل ، ثم عاد فنزع حذاءه ، وجلس قرب النار يتدفء .

ومضت ثوان وبونا الياس يدفي يديه ورجليه ، صامتاً يحدق بالنار كانه وحده فتململ بو جريس من هذا السكوت وادرك ان اخاه تأثر من كلمة بو طنوس التهكمية وفهم بو طنوس معنى هذا السكوت ، فاستدرك قائلاً :

— « الناس في زيارتك وانت في الحقلة ، في هذا اليوم ؟! هذا لا يجوز ، نحن ننتظرك من ساعتين ، لنراك ونسأل عن احوالك . ماشاهديناك كل هذه العيانة ! »

رفع بونا الياس عينيه عن النار ، ونظر الى زائريه نظرة هادئه ، ثم تنهد وقال شوقكم الي غريب في مثل هذا الوقت ! .. ليست هناك اشجار تطعم ، ولا كروم تنقى ، والقداس تم هذا الصباح . واي شوق يحملكم هذه المشقة في البرد والشتاء !

—«قيمتك عندنا» ، قال بو سليم ، «اكبر من كل هذا يا عمي بونا الياس . ولكن انت تبتعد عنا . لا تزورنا ولا تسأل عنا الا نادراً . نحن ! بالعكس ، نزيدك دائماً بيننا لنسمع كلامك ونتعظ بارشاداتك . »

— «هذا صحيح » ، قال بوطنوس ، «الناس يقولون انك تكرس اكثر وقتك للشجر والبقر ، أليس لها حصتها من وقتك هذه الرعية ! »

سكت بونا الياس هنيهة ثم هز رأسه متألماً وقال :

—« الرعية لها كل وقتي ، و كل قلبي ، وكل حياتي . ولكن وقتي لا انفقه على لعب الورق ، وقلبي لا اوزعه في السهرات ، وحياتي لا تصرف في الزيارات . ولو كنت اردت ان ابقى كسولا ، متوانياً لما كنت عدت الى القرية . وانا اعيش الحياة التي ترضي ضميري ، لا عقلية الناس . واذا كنت اعتني بالشجر والبقر فلأنها جزء ضروري من حياة الرعية . »

—«ولكن يابونا الياس ، على الانسان ان يراعي عقلية الناس قليلا . ان الشغل الذى تقوم به هو شغل الرهبان الاميين ، البسيطين ، الذين لم يحصلوا على الدرجة الكهنوتية المقدسة . اما انت فلا يسمح مركزك الكهنوتي ان تفعل ما تفعل

« انت تعلم كم انا احترمك » ، قال بو طنوس ، « وكم اريدك ان تكون خادماً للرعية ، قريباً من اهلك ومنا جميعاً . ولكن على شرط ان لا تهمل الرعية وتدعها تتشكى منك بعد ان تكون تحبك .

« انت تعلم اني مسؤول نوعاً ما ، تجاه الرعية لاني انا الذي الح ببقائك بيننا ، نزولا عند ارادتها طبعاً . ولكن انت كاهن ، يا عزيزي ، انت تحمل سر الكهنوت في ضميرك وقلبك ، ايليق بهذا السر ، ان يعمل صاحبه بالارض ويعتني بالبقر ، حتى ايام الاعياد ؟ !

« الكاهن في نظر الرعية ، يجب ان يظهر بمظهر لائق لتحترمه ، والا فما الفرق

الان بينك وبين بوحنا شاهين الذي ينام وغبار التراب على وجهه ويديه !.

« ثم اني اسمع دائماً انتقادات الناس الدائمة عليك واسكت ، وكدت تخلق لي مشكلة في القرية ».

—« انت تضطرني الان ،يا عمي بوطنوس»، قال بونا الياس ،« ان ابحث في موضوع كنت اود ان اعالجه بالعمل لا بالكلام . ولكن لا بأس ، سيرة وانفتحت الان ، وانا ما تعودت ان اتهرب من الحقيقة .

« لقد احرجتني ، يا عمي بوطنوس ، وانا رجل بسيط ، كنت اريد ان اقضي حياتي ساكتاً . اعمل ما يوحي لي ضميري . انت تجرني الى الكلام لادافع عن نفسي . انا لست مستعداً ان اسخر حياتي لما يظنه الناس صوابا بينما انا اراه بنور ضميري غلطاً!

« انا كاهن ساذج ، عاجز ، بسيط ، لماذا لا تتركوني في زاوية حياتي ، بعيداً عن الناس ! . . هذه تجارب الشيطان ! تحرك الناس ضدي ! . . .

كان يتكلم بونا الياس بقلق دون ان يتطلع الى احد ، كأنه يتكلم لنفسه .

«طيب ! ماذا تريد ان تقول يا بونا الياس !» قال بو سليم .

احس بونا الياس ان الظروف تقتلع من اعماق فكره شيئاً كان يريد ان يقوله للناس وهو صامت . اليحق له ان ينتقد الانظمة ؟ هو الكاهن الشبه امي ،المفروض فيه ان يستر هفوات الكهنة والرهبان ! « ولكن الصمت يجوز» ،قال بونا الياس في سره ، طالما هو لا يحيد بي عن الطريق القويم الذي توجبه علي تعاليم سيدي ، والذي يريني اياه نبراس وجداني . اما متى صار الصمت خطراً علي ، فالواجب يقضي بان اتكلم . ألم يطرد السيد المسيح الصيارفة وباعة الحمام من الهيكل ! ألم يهدد الكتبة والفريسيين . ! »

تردد بونا الياس كثيراً ولكنه وجد اخيراً ان لا بد من التصريح بافكاره والا تمادى الناس في غيهم وظنوا انه يشتغل تفانياً على المادة .

— انا هربت من الدير كي اتخلص مما يريد ان يفرضه علي ياعمي بوطنوس هنا! هربت كي لا ارى عرق جبين الرهبان الاميين والشركاء الفقراء المساكين يتصبب كي يريح القسوس الكسالى الذين هجروا سياسة الناس وسياسة الارض ، فلا

ينفعون الدين ولا ينفعون الدنيا .

« وجئت اخدم هذه الرعية ، لا لاستثمر تعب ابنائها واتنعم باموال فقرائها ، واساير بساطة الناس الميالين الى الكهنة الذين يجارونهم في ضعفهم وكسلهم .

« انا لست مبشراً ، ولا واعظاً ، ولا سلطاناً ، انا خادم لهذه الرعية ، يجب ان اخدمها في طقوسها الدينية واعلمها بالعمل لا بالكلام ، المحافظة على عاداتها وتقاليدها النشيطة المخلصة ، التي تحفظ آدابها وحياتها ! اعلمها ما يبعدها عن الكسل والتلهي بالاعمال القبيحة ، المنكرة . وانا لا يهمني ماذا يفعل هذا الكاهن او ذاك لارضاء رعيته . ان مهمتي هي ان اصلح الرعية لا ان ارضي المتعنتين منها . فاذا كانت الرعية تريدني كباقي الكهنة ، كاهناً عصرياً ، كما يقولون ، فما علي الا ان اعود الى ديري ، اقضي حياتي في محبسه ، او ان انزوي هنا في بيتي ، اذاسمح لي!

« نحن لا نقصد هذا ، يابونا الياس . قال بوسليم . نحن نريد منك ان تجاري الرعية قليلا لتكون ساكته ، وفي الوقت نفسه تقدر ان تقوم بالاعمال التي تريد .

« انت تعرف ان القرية تعتز بكاهنها ، كما تعتز بمختارها وبوكيل كنيستها ، وتريد ان يحضر هؤلاء الثلاثة حفلاتها بهيئة لائقة . انت تقضي كل اوقاتك في البرية بعيداً عن الرعية ، حتى ايام الاعياد وهذا مستهجن عند الناس خصوصاً والكنيسة تطلب منهم البطالة في الآحاد والاعياد ! »

— «انا اظن يابونا الياس ان المسألة بسيطة ، قال بوطنوس بجدة ، فاما ان ترعى الرعية كما تريد هي واما ان ترعى البقر والشجر . اما ان ترعى الاثنين فذلك مستحيل .

وقد تركت الناس في القرية يلهجون في هذه المسألة ، ولا اعلم « اذا لم يكن ذهب منهم وفد الى سيدنا المطران يعرضون عليه حل هذه المشكلة .

« تأكد اننا دافعنا عنك انا وبوسليم ، ولكن انت تعلم ان البعض لايطيعون ، وهم يقولون : نحن لا نريد ان يخدمنا مجاناً ، ولكننا نريده بيننا لا في الحقول والكروم!»

«مليب ! طيب! كلامكم على الرأس والعين . سوف اتفاهم مع الرعية نهائياً

اما بحضور سيدنا واما في اجتماع عند واحد منكم . اظن انه اذا كنت في سني بحاجة الى مواعظ الرعية ، لا اعود صالحاً لخدمتها . فانا في هذا العمر لست مستعداً ان اغير حياتي . واذا كنتم تريدون ان نذهب لمقابلة سيدنا لا بأس ، انا مستعد .

— « على أي اساس تريد ان تتفاهم مع الرعية » ! استفهم بوطنوس .

— « سأرى ما يلهمني به الله . » قال القسيس بحزن .

— « هذه فكرة موافقة . يا عمي بو طنوس ، قال بو جريس ليكن التفاهم نهائياً مع الرعية ، اي مع وجهاء القرية الذين يمثلونها . واذا جاء المطران كان احسن واحسن »

ثم وقف بو جريس على حدة وقال له بصوت خافت : « دعه يا عمي يتفق مع الرعية ، واذا لم يتم الاتفاق فليرجع الى الدير . لا لزوم ان تكون متكدراً انت ، نحن نريد رضاك قبل كل شيء »!

« انتم تعلمون قلبي من نحوكم ، قال بو طنوس ، ولكن القسيس يزيدها ! لا يطل على الرعية الا وقت الضرورة ، هذا لا يجوز . . »

«— سأتكلم معه هذه الليلة . وانت ياعمي بوطنوس هيء الاجتماع عندك ، ولننته من هذه القصة بصورة جدية » ، قال بو جريس

« — طيب ، طيب » قال طنوس وهو يعود الى مكانه قرب النار ، « لم نذق تيناتك . تفضل يا بو سليم ، تفضل ، . . . .

« جئت بالجوز المكسر ايضاً يا مريم ، انا اقدر على الجوز ؟! . . . على كل حال تسلم دياتك يا مريم ، . . . . لا بد ان تكوني كنتي ولو بقي يوم واحد من عمري . . . — »

فابتسمت مريم وفاجأتها حمرة الحياء وبقيت صامتة .

— « والآن يجب ان ننصرف قبل ان تعتم اذن ؛ من اليوم الى الاحد ، بعد يومين نرى ما يجد . . . . اتذهب يا بو سليم ؟ »

— « تفضل ، حاضر » قال بو سليم .

عادت ام جريس من « حارة القز » المجاورة للبيت حيث كانت تخبز مع ابنتها

الصغيرة حنة فاسرعت مريم تطلع امها ، وهي لا تزال في المد تفرش الخبزات ، على زيارة بو طنوس وما جرى في تلك الزياره . وافهمتها ان بو طنوس لم يكن راضياً قلبياً عن النتيجة .

— «هل قمت بالواجب يا مريم ؟ هل قدمت صحناً من التين الجديد؟هل عملت اركيلة من العجميات لعمك بو طنوس ؟» قالت ام جريس

— « طمني بالك ، عملت كل ما يلزم» ، قالت مريم .

— « هل عزمتهم على الفراني بدهن ؟ »

— « ما فطنت للفراني ، وابي لم يذكرني . خيرها بغيرها . ولكن كوني مرتاحة البال . كانوا مسرورين . قدمت ايضاً صحناً من الجوز المكسر ، مع التين ، الا يكفي ذلك ؟ قالت مريم متضجرة .

—« يا حيف عليك يا مريم . الا تعلمين ان بوطنوس هو بدون اضراس ؟ هذا مشهور عنه ، كيف يأكل الجوز ، لا شك انه ضحك عليك ، اياك ان تعيديها بعد ، خصوصاً وعمك بو طنوس ينتقد كثيراً . ولكن انتقاده لا يظهر الا بعد حين وانت يلاحظك بصورة خاصة ، وتعرفين ما يقصد . خذي صحناً من التين لبيت عمك ، اتاخذينه بعد اسبوع ، لماذا هذا الاهمال ؟!

—« الآن ؟ » ، قالت مريم بحيرة :

— « طبعاً الان . ما يمنعك عن ذلك ، الا تعلمين ان مرة عمك تعتب كثيراً ؟»

انصرفت مريم لتنفذ اوامر امها . وبينما كانت تملأ الصحن تيناً قالت لها امها :

« الآن كتري جوز على وجه الصحن ؟ »

وكان بو جريس يسمع الحديث ولا يقول شيئاً لانه شعر ان الحق عليه . كان يجب عليه ان يذكر مريم بتقديم الفراني السخنة مع القورمة .

وتابعت ام جريس فرش الخبز على حصيرة نظيفة ، مخصوصة بذلك . وهي تتمتم كلمات لم يفهمها زوجها ولا انتبه لها الكاهن المصلي في زاوية من القبو على الديوان الى الجهة الغربية .

—« هل ذهب احد الى لمّ الزيتون يا بو جريس ؟ »قالت ام جريس من المد

المجاور ، حيث كانت تشتغل .

—« واي متى انقطع المطر لنذهب الى الزيتون ؟ ! ان ارض الزيتون لا تندعس اليوم في هذا الوحل » . اجاب بو جريس .

—« الارض المرملة تندعس جيداً ! كيف تكون ارض الزيتون بعد ثلاثة ايام وليال من المطر القوي ؟ انها مكسوة بدون شك . واذا امطرت هذا الليل ينظم الزيتون الساقط كله بالتراب »

«عفاكم ، عفاكم ، ! اتكلوا كل واحد على الاخر ؟ . . »

—« انت تظنين اننا كنا قاعدين بدون شغل ؟ . . . الناس يلومونا على كثرة الشغل وانت تطلبين اكثر » قال بو جريس بشيء من الزعل .

—« الناس لايلومونك انت ؟ . . . . اجابت ام جريس بشيء من التوبيخ .

« على كل حال الشغل يتبدأ بعضه على بعض ، لا يمكنكم غداً ان تبحثوا التراب وتشيلوا الزيتون المطموم من تحته »

—«ما في الجو شتاء . طمني بالك . وغداً نذهب باكراً فنلم الكل دفعة واحدة .

سكتت ام جريس وتابعت فرش الخبز . ثم بدأت تتمتم بصوت خافت :

« وسعيد ماذا يعمل اليوم ! يعني اذا كان يكاري لا يجوز ان يساعد اخوته وقت يكون في البيت ! حقيقة ان هذه المهنة تقلل الخواص ! بو موسى لا نلومه ابنه مريض وهو صحته على قدها في هذه الايام . وبو جريس متى كان الصمد والنير والمساس بخير هو بخير !

« لااعلم ماتكون حالتهم لو تركهم هذا القسيس . مسكين ما اقل حظه ، يضوي اصابعه للناس ولا احد يقدر جميله ، الدنيا حظوظ . يخدم الكل ، والكل يتذمرون

ثم وجهت الكلام الى بو جريس وقالت :

— «غابت الشمس يا بو جريس الا تريد ان تحلب « الكحلا » ؟ »

وكانت انتهت من شغلها فجاءت الى القبو وجلست قرب النار وبعد هنيهة قالت :

— « يجب ان تنتبه يا بو جريس « للبكيره » فقد صارت على لياليها . يجب ان

تسهروا عليها من هذه الليلة وصاعداً »

اطبق القسيس شحيمته واعادها الى « الطاقة » ، ثم دنا من الموقدة وقال :

— « الله معك يا مرة اخي ! كيف هذه الخبزة ؟ عسى على خاطرك . »

— «بدعاك يا سلفي وبركتك » قالت ام جريس

— « بركة القديسين ، يا ام جريس . اعطني الوعاء لاحلب لك البقره » قال القسيس .

— «الا يكفي تعبك كل هذا النهار . خل عنك ذلك . في البيت غيرك لهذه الشغلة . قالت ام جريس ، اجلس قليلاً وخبرني ماحدث بينك وبين عمنا بو طنوس .

« بو طنوس يا سلفي يحبنا كثيراً ويريد خيرنا لذلك لا يجب ان تزعل منه . الناس لا يتركونه على دينه . وانتقاداتهم لا تبطل ابداً . لا اعلم ماذا يريدون ! .. يوماً يريدون كاهناً عصرياً يساهرهم ويلاعبهم بالورق ، يوماً يطردونه ويطلبون كاهناً من الطراز القديم . ثم لا يطول الوقت حتى ينتقدون كاهنهم الجديد . لقد احتاروا في امرهم وحيرونا نحن ايضاً »

— لا بأس سأطول بالي عليهم . قال بونا الياس ، ما زالت نواياهم حسنة . على ما اظن . وسوف افهمهم ، بوجود المطران اذا شاؤوا . ان الشغل حتى يوم الاحد افضل من الكسل والتواني .

على كل حال لم يكن بو طنوس زعلان ، وهو قلبياً من جهتي ، ولكنه ضعيف مع المتعنتين ، سوف يخبرك بو جريس عن كل ما جرى .

« اين الوعاء هاته ... لا تعب الا تعب الفكر يا مرة اخي ، الشغل عباده ، وتسلية في الوقت نفسه . الايدي الكسولة تتعب وتمل اكثر من الايدي العاملة »

ولما داته على الطنجرة المغسلة والمهيأة للحليب ، اخذها ومضى الى المراح الملاصق للقبو .

لما عاد بونا الياس من المراح حاملاً طنجرة الحليب ، كانت العيلة قد تجمعت كلها حول الموقدة . مريم تلاحظ القدر على النار . وتحرك قلية « المخلوطة » في مقلاة صغيرة . اما حنة فمنهمكة باحضار كل لوازم العشاء . فقد وضعت الطبلية الواطية

قرب الموقدة وصفت عليها الصحون القيشانية الملونة ، والملاعق الخشبية السميكة ، ثم تناولت من المعجن ، المركز على برميل قريب ، لفة من خبز الصاج المشرقاني والقتها مطوية على طرف الطاولة . وبعد ان انت هذا الفصل التمهيدي للعشاء دنت من اخيها وسالته ان يحمل سراج الزيت الصغير ويرافقها الى المد .

غابت حنة نحو عشر دقائق وعادت حاملة صينية من القش ، عليها صحون عديدة ملآنة بجواضر البيت من زيتون اسود واخضر ، وتين مطبوخ بالدبس ، وجبن . فصفت هذه الصحون في وسط الطبلية وتركت الصينية على الارض ثم راحت تجلس قرب امها منتظرة ان تصب الطبخة .

كانوا كلهم صامتين ، متألمين ، على وجوههم علامات الهم والكدر ، ينتظر كل منهم الاخر ان يتكلم .

— « هاتوا خبرونا ما سمعتم في الضيعة » ، قالت ام جريس ، « ماذا قال لك عمك بو طنوس يا مريم »

— « ما كان في البيت ، يا امي ، ولكن مرة عمي خبرتني ان عمي بو طنوس زعلان كثيراً من بعض اهالي الضيعة ومن عمي القسيس ايضاً . وسألتني عما جرى عندما زارنا عمي بو طنوس اليوم فخبرتها . فقالت لي الله يسامحه ، بونا الياس ! الا يعرف كم يحبه بو طنوس ؟ كان يجب ان يسايره قليلا . ثم زادت بصوت منخفض « نحن لا يوافقنا يا بنتي ان يأتي كاهن غريب الى الرعيـة يشغلنا بالنطارة عليه . نحن لا يوافقنا الا بونا الياس . هو منا وفينا ، وهو كاهن طاهر ، لا احد يقول عليه كلمة » ثم توقفت عن الكلام هنيهة كانها تتودد في مـا تريد ان تقول ، ولكنها قالت اخيراً : « غداً يوم الاجتماع ، ادبر المسألة مع عمك بوطنوس . لا يمكن ان نتنازل عن القسيس »

لم تسكت مريم بضع ثوان عن الكلام حتى قال جريس : كانوا يتكلمون عند بو شاهين بينما كنت ماراً على الطريق ، قرب بيته ، فسمع واحـد يقول : « ايليق بونا الياس ان يرافقنا في المآتم والاعراس والاعيـاد وليس عنده بدلة تلبس ! واي متى رافقنا فالناس يسألون دائمـا : اين خوريكم . ونحن نختلق له

الاعذار » ثم قال بوعبد الله : « ياجماعة المثل يقول : لا تعرفوني حتى تعاشروا غيري . و نحن عاشرنا غيره عندما مرض منذ سنوات وعرفنا . نريد قبل شيء كاهناً يريح بالنا بسلوكه وآدابه ، ويقوم بمراسيمنا الدينية بورع وتقوى . وما تبقى يصبح ثانويا . انسيتم الان كيف كانت حالنا مع بونا قليموس وبونا مخايل وبونا بولس ! .... اتريدون ان نقضي الليالي نواطير على الخوري والارامل !

« ان بونا الياس هو انسب كاهن لرعيتنا . هو لم يقصر مرة بواجباته ضمن القرية ، سواء في الكنيسة ام في عيادة المرضى والسهر عليهم متى ثقلت حالهم ولم اسمع ان الناس يلومون الكاهن لتقواه وتنسكه وحبه للشغل . »

واكمل حنا قائلا : « سكت الجميع بعد كلام بو عبد الله وشعرت ان اناساً لم يرقهم هذا الكلام فهموا بالانصراف ، لذلك مشيت انا حالا خوفاً من ان يروني . »

ثم وجه حنا الكلام الى ابيه قائلا : « والله يا ابي ، ان المطران وبعض افراد من الرعية هم الذين ينزعون بالكاهن الى اعمال الباطل . هم الذين يخلقون له التجارب ويسهلون طرق الوقوع في الخطايا ، ثم يلومونه بعدئذ على اخطائه ! .

« هل الكاهن سعدان يرقصونه كما يريدون ، ومتى يشاؤون ؟.... كان عندهم كهنة من هذا النوع لماذا طردوهم ! ؟... ولكن الحق ليس على الرعية بل على الراعي الذي يسمع للدساسين والنمامين . وهو لا يفهم شيئاً عن احوال الرعية ! ... »

— « حنا ! .. لا تفتح سيرة سيدنا المطران » . قالت ام جريس بجدة ،

« سيدنا هو اب الجميع . لا يفضل واحدا على الآخر . ولكن الناس يزعجونه بشكاويهم ومطاليبهم فيعمل لهم ما يطلبون ! »

— « ولكن هذا هو الخطأ ! هو يعمل لهم ما يطلبون قبل ان يعلم اذا كان طلبهم حقاً ام باطلاً ! وقد سمعت ان وفداً من ثلاثة اشخاص ذهب الى المطران يشتكي مدعياً ان سلوك عمي القسيس لا يليق به . وسوف ترون ان المطران سيسمع لهم ، فيأتي هو بنفسه او يرسل وكيله ليحقق بالامر ، وهناك تكون الخسائر والولائم والوساطات ، تقع كل مصاريفها على اهل القرية . انا اذكر كم

تكلفت الضيعة على خلافها وقت كان بونا قليموس كاهنا للرعية . وقد جاء الوكيل اكثر من خمس مرات ليس الا ليزيد الخلاف ويأخذ الليرات الذهبية من هذه اليد ومن تلك ! ! ...»

— قلت لك ، ياحنا ، لا تتكلم على سيدنا قالت ام جريس بغضب ، حقيقة ان هذا الجيل لا يحترم احداً ! الله ينجينا من هذا الجيل ومن وقاحته وقلة هيبته ، اذا كانت الرعية لا تتفق ماذا تريد ان يفعل لك المطران ، أيعمل العجايب ! ...»

— « طيب ، يا امي ، معك حق ! ... سكتنا ! ... ولكن تذكري كلامي ! وسوف ترين ما سيكون . ان سكوتنا هو الذي يقوي المطران وغيره علينا . انت تظنين ان كل الكهنة مثل عمي ، يخدمون لوجه الله الكريم ، ولا يملكون الا ثيابهم العتيقة وشحيمتهم القديمة ... ولكن تأكدي ان ألوف العثمانيات في صندوق سيدنا يزيدها كل يوم بواسطة هذه الخلافات التي تحدث في الرعايا ...»

— « يا بوجريس اسكت هذا الولد عني ! لا اريد ان اسمع كلام الكفر في البيت !» قالت ام جريس وقد عيل صبرها ، « مالك ياسلفي ساكت عن هذا الكلام ! .. ان بيتنا بيت كهنة وقداسة من قديم الزمان ، أيجوز ان نسمح لاولادنا بان ينتقدوا رؤساءنا على هذه الطريقة !...

— « مالك ولهذا البحث ياحنا ! أقادر انت ان تصلح ما افسده الناس ! » قال القسيس بهدوء وحزن . فسكتت ام جريس وادركت ان سلفها يجذ كلام حنا نوعاً ما .

« سننتظر لنعلم ما يكن من امر الوفد الذي ذهب الى المطران » أكمل بونا الياس ببساطة القديسين واتكالهم المؤمن . ان الله يدبر كل شيء . الله يدرك النوايا والاعمال . ألم يقل لنا : شعور رؤوسكم كلها محصاة ، لا تخافوا ! »

V

علم بو طنوس وهو في طريقه الى البيت ، عائداً من عند نسيبه القسيس ، ان وفداً ذهب الى المطران يشتكي

« اذاً صارت المسألة نكايات دنيئة ؟! » ،قال بو طنوس ، « اذ انهم يفعلون كل ذلك نكاية بي ، لا تذمراً من سلوك القسيس ! .. واي ذنب لهذا الكاهن المسكين اذا كنت انا اخذت وكالة الكنيسة منهم ؟ »

وصل بو طنوس الى البيت غاضباً ، حانقاً ، واحياناً تفلت منه ،بتمتمة ، كلمات الوعيد ، فلبس شرواله الجوخ الاسود ، وساكته الشتوية ، وغير طربوشه وتناول مظلته ، ثم بعد ان اكل لقمة على الواقف ، هم بالرحيل .

وكانت ام طنوس مشتغلة بشؤون بيته فلم تنتبه لمجيء زوجها الا وهو على اهبة الرحيل . فاسرعت نحوه وقالت : « الى اين من غير شر ؟ الى اين ؟ ماذا جرى ؟

— «جرى ان الناس لا تنتهي مشاكلهم ! قال بو طنوس بحمق ، ولم يجدوا الآن الا هذا الكاهن المسكين سلاحاً للنكورزات والضغائن . وانا ذاهب الى المطران لاضع حداً لمهازل هؤلاء الناس . كلهم نفر لا يتجاوز عدد اصابع اليد ، ويريدون ان يمشوا الضيعة حسب عنعناتهم وما ربهم الخبيثة .

« والقصه كلها على وكالة الكنيسة ، فقد امست هذه الوظيفه موضوعاً دائماً لمناوراتهم وموردا غزيراً للمطران ونائبه .

« سأضع لهاحداً ! إما ان لا يسمع سيدنا لهؤلاء الناس ، واما ان اسلمه مفاتيح الكنيسه واطلب من هذا القسيس ان يقدس لنا وحدنا او يعود الى ديره ! »

— « ولكن طوّل بالك ، يا بو طنوس،اتريد ان تذهب في هذا البرد القارص؟ عمره لا يكون مطارين ! ... معك وقت طويل ، كل هذا الاسبوع .ومن

اليوم الى الاحد يفرجها الله »

— اين طنوس ؟ أليس في البيت ؟

— بلا هو في البيت ولكنه نزل الى القبو ليأتي بقليل من الحطب لاجل الليل

— اندهه ليعجل . سأرسله محلي الى المطران ليقول له ، عن لساني ، كلمة تقطع عقله . انا اعلم عقلية المطارين ، واذا لم نسرع بافهامه الحقيقه ، سيكون ضد بونا الياس واكثرية القريه .

لم تمض دقائق حتى عاد طنوس من القبو ، فقال له والده : البس ثيابك حالا سأرسلك الى عند سيدنا .

بدأ طنوس يلبس ثيابه بينما كان والده يتكلم :

— قل لسيدنا اذا كان لا يضع حداً لهذه النكايات فاني اترك وكالة الكنيسه ، والكنيسه ، والازم بيتي ، واطلب منه ان يأذن لبونا الياس ليقدس لي في البيت يجب ان ننتهي من هذه المهزلة .

« قل له ان الذين ينتقدون القسيس لا يتجاوزون عدد اصابع اليد . ايريد ان يعمل لنها كل يوم نقمة من اجل هؤلاء المشاغبين ؟ ! وانا لست مستعداً ان ان استقبل احداً في بيتي والبك نفسي ، من اجل امور تافهة كهذة ! . . . يجب ان يفهم ذلك ! يجب ان يتخسروا هم ، ليعلموا قيمة النكايات والدسائس . فانا لست مستعداً ان اتحمل المصاريف الباهظه ، كل مرة ! »

وسكت بوطنوس كأنه يجهد فكره ويستوحيه ما يجب ان يقول .

اما طنوس فقد لبس شرواله الرصاصي الجميل وشد منتيانه المخملي الاسود ، ولف زناره الحريري الطويل ثم تناول ساكته الكحلية الجديدة . وبعد ان مر امام المرآة الكبيرة ، تناول جزمته البنية اللون ولبسها ، ثم فتح الخزانة واخذ طربوشه . وبينما كان يركزه على رأسه ويلف عليه وعلى اذنيه لفة الصوف ليتقي الريح البارد ، قال لوالده :

— اشيء آخر ؟

— لا ! ولكن كن شديد اللهجة ولا تخف احداً . يجب ان يعلم ان المسألة لم

تعد تطاق ، نحن عندنا شغل غير هذه التوافه »

— طيب ! فهمت .

— خذ المشلح والشمسية ، قالت ام طنوس . ولا تتأخر في الطريق لترجع قبل الغياب .

— ولكن مسألة عدم استقباله في بيتنا لا يجوز ان نبحث فيها ، قال طنوس ، انا اتركها له ، اليس كذلك ، يا ابي ؟

— طيب دبر المسألة كما تريد ، مع السلامة .

لم يمضي على ذهاب طنوس اكثر من ساعة حتى شاع ان نائب المطران آت الى القرية نهار الاحد القادم ، ليتغدى ويحقق في قضية كاهن الرعية . فأنغم بو طنوس لهذا الخبر وكبت عواطفه منتظراً رجوع ولده من زيارته ليرى النتيجة .

نائب المطران يزور القرية . هو موضوع واسع للساسة القرويين ليعلقوا عليه ويتوسعوا في تأويله وتفسيره . موضوع تسلية وسهرات واجتماعات سرية يستمر كل هذا الاسبوع ، حتى يوم الاحد ظهراً ، على الاقل . اذ ذاك تحل المشكلة فيفرح كثيرون وينغم كثيرون .

وكيل الكنيسة والمختار والكاهن هم القرية . ومهما كانت هذه الوزارة نافعة وملائمة جمهور القرية ، لا بد من المعارضة .

وقد اضطربت الضيعة كلها للخبر الجديد ، الا شخصاً واحداً ، بقي هادئاً ، مستكناً ، مؤمناً بصلاحية سلوكه ، متكلاً على العناية العليا لتقرر مصيره ، ذلك الشخص هو بونا الياس .

هو مستعد لكل شيء شرط ان لا يتغير مجرى حياته النسكية : لقد فكر حتى بالانسلاخ عن هذه الرعية المحبوبة ، وهذه الارزاق التي رباه جده وابوه على حبها ! فكر ان يهجرها وينزوي في محبسة من محابس الرهبنة : قريباً من الله ، دانياً من صميم الطبيعة .

اما بو جريس فقد خاف كثيراً من العاقبة ، ليست اول مرة تقدم شكوى من هذا النوع بحق اخيه ، مدبر بيته واملاكه . انها المرة العاشرة او اكثر . وكل

مرة كان يوصي القسيس بالا يتعاد عن الارض والتقرب من افراد الرعية .

ولكن عبثاً حاولوا ذلك ، فلبونا الياس طريقة خاصة للتقرب من افراد رعيته هي طريقة العمل واعطاء المثل الصالح ، وهي الخدمة المجانيه ، الخدمة المجردة من كل غاية الا محبة الناس وخيرهم .

VI

كان صباح الاحد مشمساً ، منيراً ، « العيانة » قد انتهت في الليل ، فطلع النهار على سماء صافيه من السحائب ، وظهرت الشمس بعد انحجابها اسبوعاً كاملا ، ما ترآءت خلاله الا فترات قصيرة .

وصل بونا الياس الى الكنيسة مع طلوع الشمس . ففتح بابي الرجال والنساء ورتب بعض الاواني ، ثم فتح شحيمته وطفق يتمشى امام الباب الشمالي مصلياً .

لم يكن هندامه مبتذلا كعادته . فقد غدا ابن اخيه جريس وقص له شعره ومريم فرشت له ثيابه ونظفتها ، ومسحت له حذاءه دون علم منه . حتى كان مظهره لا ينقص كثيراً عن كهنة القرى البسيطين ، الذين لا يعطون المظاهر اهميتها ، بل يكتفون بالبسيط اللائق .

كان بونا الياس يتمشى ويصلي . بين آونة واخرى يقف ويصعد نظره الى الجبال الملتحفة بالثلوج ، وينحدر بنظراته من القمم العالية حتى تغور النظرات في اعماق الوادى الهاوية امامه في الاغوار كما يهوى الغواص في مجاهل المياه . وعندما تنتهي رحلة ناظريه ويتم استعراضه ، يعود الى صلاته ويمشي .

ومركز الكنيسة ، منفردة على كتف الوادي الى الشمال الشرقي من القرية ، بين الحرش والكروم وبساتين التوت ، كان يوافق مزاج هذا المتعبد للارض والسماء . فهي بعيدة عن البيوت ، في محيد عن الطرقات العامة ، لا يستوحي من كان بقربها الا الورع والخشوع .

اغصان السنديان والعفص من الشمال والشرق واغصان الزيتون وقضبان التوت من الغرب والجنوب كانت تصطدم بجدران الكنيسة ، ثم تكمل نموها مرتفعة ، كأنها تتسلق الجدران وتكوّن باقات كبيرة من الاخضرار تفرح قلب بونا الياس وتزين الكنيسة .

وقد حاول كثيرون ان يقطعوا بعض السنديانة الكبيرة الطاغيـة على سطح الكنيسة فأبى بونا الياس ان يصير ذلك ودافـع بكل قواه عن جوّ الاخضرار المحدق بالمعبد الصغير .

كان كل شيء صامتاً عند بدء صلاته . فحرارة الشمس لم تكن بعد تغلغلت في الاشجار الغضة ، والمنخفضات المطمئنه ، المخبأة ، حيث يكنكن الطير في ايام كهذه . والسواقي المنحدرة من الشرق : هناك في خرير شلال صغير وهنا في رقرقة خافته ، لم تكن توحي للاطيار الا بقايا البرد المخيف .

ولكن بونا الياس يتمشى منذ نصف ساعة والحرارة تدب في اعضاء الطبيعة دبيب الصحة المستعجلة في الجسم الناقه الفتي .

بونا الياس يقف من جديد . يطبق الشحيمة ويضع اصبعه علامة بين صفحاتها . الاشعة تتدفق من اعلى القمم تحمل حرارة جديـدة . يحس من تنصب عليه ان فيها شوقاً الى عائلة الارض ، ثم تتلألأ انعكاسات انوارها على اعضاء الطبيعة المبلله فيبدو كل ما على الارض مبتسما فرحاً يهلل للحياة .

والبحيرات الصغيرة المنتشرة في الامكنة المطمئنـة وفي قلود الصخور تتألق بالانوار السابحة على اديمها كانها فوارات من الانوار ترتفع الى امها الشمس .

والعصافير ارتاحت الى الحرارة المتزايدة ، فقفزت من مخابئها تنتحي الصخور والاغصان اليابسة خوفاً من وكف الاغصان النضرة . وهي تنتفض مرات متواصلة لتبدد رطوبة الليل وكسل الايام الماضية وتصطلي بالحرارة المنهمرة من الفضاء .

وهل من صورة حية ، منشدة ، مسبحة ، اروع من هذه الصورة الشاخصة الآن الى العلاء تضم الانسان في اعلى درجات تصوفه والطبيعة في يقظة شعورها واحساسها بالقوة العليا المسيره ، التي تعطي بامطارها الهطول ، وتغمر بانوارها المدفئة ، وتبقي

الاشواق حية ، دائمة ، في الطبيعة والانسان : آناً الى المياه الغزيرة ، وحيناً الى الحرارة المنعشة ؟ !....

اما الاطيار الصغيرة ، المجاورة بونا الياس ، والكنيسة ، فانها تثب ايضاً من ملاجئها الصغيرة ، وتهرب من الاغصان الى جدران الكنيسة وشبابيكها وهي لا تخشى هذا الكائن الاسود ، يمثل كل احد دوراً واحداً ، متشابهاً : يروح ويجيء امام الكنيسة . ولم يكن مرة ليقوم بحركة مخيفة ولا يرمي حصاة مزعجة ، بل كان اذا رأى عصفوراً يقترب من الساحة ، قصر مسيره وعدل مساحة تمشيه كي يطمئن جاره الصغير . والطير كانت تلاحظ ذلك مرة بعد مرة فتأنس بهذا الشبح المتحرك بتؤدة وتأمل ، والجامد حيناً آخر ينظر بعطف وحنان .

وبونا الياس شعر بهذه الصداقة الصامتة فاراد ان يثبتها ويقويها بمظاهر العطف والمحبة لذلك كان غالباً ما يحمل في جيبه كمشة من البرغل الناعم ، ينثرها قرب الكنيسة الى جهة الحرش ، قبل ان يبدأ بصلاته .

اما اليوم فقد حمل كمشات عديدة من البرغل اذ علم ان الامطار منعت اصدقاءه من التغذي خلال اسبوع ، فخاف ان تهجره وتنسب اليه الاهمال والقساوة . وها هو الآن يرش البرغل هنا وهناك ، في كل مكان نشفته الشمس قليلاً ، وهو يرمي به على الشبابيك ايضاً حيث يلجأ الدوري بصورة خاصة .

وبعد ان يفرغ القسيس جيبه ، يعود الى التأمل بهذه اللوحة الشتوية الدافئة ، تعرضها الطبيعة هذا الصباح . وهو يسمع الان اصوات الاولاد يسوقون المواشي الى الحقول التي تضربها الشمس باكراً . وهذه ابقار تتسرب الى الحرش المجاور ، تهم بالمرعى وتخاف الاعشاب المبللة فتمشي وتتلفت مفتشة عن عشبة نشفتها الشمس اكثر من غيرها . فيفرح بونا الياس بنشاط الاولاد يبكرون يوم الاحد ويسرحون ابقارهم قبل القداس ، لتستمتع هي ايضاً بحرارة الحياة .

واذا نظرت الى الاشجار الفيتها جامدة ، صامتة ، حاسرة الاغصان كأنها تتعمد بروح الانوار ، بعد ان تعمدت بالامطار وهي تشتاق لفح الشمس كما تشتاق الحبيبة المغيبة لفح القبل .

بدأت العجائز تصلن الكنيسة ، وانتهت فترة الطمأنينة والتأمل والصلاة عند الكاهن الطاهر . فغلق بونا الياس شحيمته ولفها بجلدتها العتيقة وراح يضعها في طاقة صغيرة ، فوق جرن الماء المقدسة ، قرب باب الكنيسة ، كي لا ينساها عند انصرافه .

بعد ساعة يصل نائب المطران ليقدس ، سيكون قداساً حافلاً بدون شك .

عندما صارت العجائز خمساً او ستاً اعلن بونا الياس انه مستعد ان يسمع من يريد ان يعترف ، واعلن ان القداس الحافل سيكون الساعة التاسعة ، ثم دخل كرسي الاعتراف وانتظر .

بعد قليل بدأ القرويون يصلون جماعات وافراداً . منهم من يقف امام الكنيسة متحدثاً متسلياً ، ومنهم من يدخل الكنيسة مصلياً او معترفاً او مبتعداً عن القال والقيل والتعليق على زيارة نائب المطران .

وقد استمرت هذه الحال حتى وصل النائب المحترم يرافقه وكيل الكنيسة ، وشيخ القرية وبعض الاعيان . ولم يتمكن بونا الياس من التسليم عليه وتقبيل يده لانه كان ما يزال يسمع اعترافات الناس بخطاياهم .

دخل النائب الهيكل بتلك الابهة التقليدية التي ترافق الاحبار من قديم الزمان من بني اسرائيل القدماء ، يحف به الناس من جوانبه الثلاثة ، فلا يتركون له الا الامام ليمشي . وكل من حوله ينتظرون ادنى اشارة منه ليتحركوا ، ويستفهموا ويلحوا بالسؤال حباً بالتنفيذ العاجل .

اما هو فقدسجد امام الهيكل مصلياً بعض ثوان ، ورأى المقعد الرفاصي الفخم المهيأ له ، فصعد بدون ان يستفهم واستوى في كرسه كانه قاض من قضاة الاسرائيليين .

ظل صامتاً ، متأملاً والناس لا ينظرون الا اليه ، ولا يتهامسون الا عنه ، وهو بين الفينة والفينة يرمقهم بنظرة فيها الكثير والعظمة والسؤدد ، ظل صامتاً حتى خرج بونا الياس من كرسي الاعتراف وجاء يركع على ركبة ونصف ويقبل يده ويأخذ تعليماته . وعندما سجد القسيس تلك السجدة المتواضعة ، حاسر الرأس ، بمظهر الساذج الفقير ، رأى الناس عبداً طائعاً يخضع لسيد قوي جبار . ولم يستغربوا

ذلك لان روح الطبقات متأصلة في نفوسهم . بل ان الكثيرين منهم اسفوا ان يكون خادمهم هكذا حقيراً ، وحسدوا العظماء الذين يتمتعون نواظرهم برأى الاحبار العظماء وملابسهم الحريرية الملونة، تلك الالوان البنفسجية الجليلة ، والحمراء المهيبة !

لنبدأ — حالا ، قال النائب الاسقفي ، بلهجة الآمر . فأومأ بونا الياس الى خدام القداس الحبري المصطفين على المذبح ، فسمعت الاناشيد حالا وقام الاسقف يبدأ بلبس ثياب الذبيحة .

الناس ما يزالون يفدون الى الكنيسة ، ليس من القرية فقط بل من القرى المجاورة التي عرفت بمجيء سيادته . والمتطوعون خدمة القداس كانوا يصعدون المذبح ليترنحوا باصواتهم وليهربوا من الازدحام في الكنيسة .

اتم الاسقف ارتداء ثيابه فمسك بعصى الرعاية ومشى نحو المذبح يكلله التاج المذهب وتجلله الثياب المزركشة المقصبة ويحليه ذلك الوقار المنبثق من جو المعبد والاواني المقدسة .

تقدم الاسقف نحو المذبح وتعالت الانغام بمؤثراتها الحاضرة والمتوارثة فأوقظت في النفوس تلك الحالة الروحية العاطفية ، وبعثت من اعماق العواطف مثلاً نفسياً كان راقداً ، وتحدر الاحساس بالانغام فغدا الناس في سكرة روحية ، لا يسمعون ولا يفهمون، بل يشعرون ، الى ان قرئت رسالة من مار بولس الرسول الى اهل سالونيكية فجاء فيها :

« فأنكم تعلمون كيف ينبغي ان تتشبهوا بنا لاننا لم نسلك بينكم بالشر ولم نأكل من احد منكم خبزاً مجاناً بل كنا نعمل بالكد والتعب ليلاً ونهاراً لئلا نثقل على احد منكم . ليس ذلك من اجل انه لا يحل لنا ولكننا لنعطيكم مثلاً في نفسنا كي تتشبهوا بنا . وحيث كنا عندكم ايضاً كنا نوصيكم بهذه ان كل من لا يجب ان يعمل لا يطعم .

وبعد قليل تلا النائب الانجيل فجاء فيه :

في ذلك الزمان قال الرب يسوع :

« لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ولا

ثوبين ولا حذاء ولا عصا لان الفاعل مستحق طعامه ...

« واذا رجل يده يابسة فسأله الفريسيون قائلين : هل يحل ان يُشفى في السبت؟ لكي يشكوه . فقال لهم : اي انسان منكم يكون له خروف ان سقط في حفرة في السبت لا يمسكه ويرفعه ؟ والانسان كم هو افضل من الخروف ! فاذن يحل فعل الخير في السبوت ...

« لا يستطيع عبد ان يعبد ربين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويرذل الآخر : لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال . »

بعد الانجيل ساد الصمت في الكنيسة وادار النائب بوجهه الى الرعية وبدأ موعظة تقليدية جاء فيها ما يأتي :

ايها الابناء لاعزاء !

جاء في الانجيل المقدس : « ما تحلوه على الارض يكن محلولا في السماء وما تربطوه على الارض يكن مربوطاً في السماء »

« يظهر ايها الابناء الاعزاء ان اكثر المؤمنين يظنون ان هذه الآية المقدسة تعني فقط ما يختص بالزواج والطلاق او تتناول فقط كل ماله علاقة بحياة الزوجين .

« ان حياة الزوجين ، بما فيها من اطوار متنوعة ومتناقضة احياناً ، هي ناحية واحدة من النواحي العديدة التي تناولتها هذه الآية ، لان السلطة المعطاة من السيد المسيح لخلفائه في آية كهذه تتسع وتعم حياة الانسان من الفها الى يائها ، من المهد الى اللحد .

« عندما يظهر الانسان الى النور من احشاء امه يأتي كاهن الله ، ذلك الذي أعطي سلطة الحل والربط ، يأتي كاهن الله فيرفع يده فوق رأسه ليمحو الخطيئة الاصليه المنتقلة اليه من ابينا الاول آدم ، ومن امنا الاولى حواء . من تلك الدقيقة التي فيها يحرر الكاهن الانسان من اثمه الوراثي الثقيل ، تبتدىء سلطة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة على المسيحي المؤمن ، وهي ، اي السلطة ، ترافقه من تلك الساعة التي ابصر فيها النور الى الساعه التي تغمض فيها عيناه على ظلام حالك . اذ ذاك ، عند ساعة الموت الرهيب ، اما تتكاثف الظلمات وتتبعها النيران الابدية

المعذبة ، واما تشع انوار الملائكة في السماء فتستقبل النفس البارة وتحملها الى حضن ابراهيم لتنعم بالسعادة وتجني ثمار ايمانها وطاعتها للكنيسة المقدسة .

اذ ذاك ، في ساعة الموت ، إما ان تحظى النفس برأى خالقها براحة وطمأنية ، واما تنتزعها الابالسة من احضان الاثير وتهوى بها الى جهنم ، حيث النار الابدية وحيث البكاء وصرير الاسنان .

« ان اهم شيء تركه لنا السيد واوصانا في الوقت نفسه بالطاعة له والتقيد بقوانينه هو الكنيسة المقدسة . فهي تعلم كيف تدير شؤوننا وتحفظنا من قوات الشر المتألبة على العالم واذا اردنا ان نخلص وننجو من ابليس الشرير وقواته المجندة ضدنا ، علينا ان نكون طائعين للكنيسة ، وكل تعاليمها واوامرها المقدسة . »

« والكنيسه ، يا اخواني الاعزاء ، لها ممثلون عندنا ، هي تستنيبهم في كل اعمالها ، وسيدنا راعي الابرشيه هو احد الاحبار الذين ينفذون بيننا اوامر الكنيسة المقدسة ، يعني اوامر المسيح نفسه .

« يا بطرس انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها » هكذا قال السيد المسيح

يجب ان يكون ايمانكم قوياً بثبات الكنيسة ضد زعازع الهراطقه الذين حاولوا الانتقاص من سلطتها وسلطة رأسها خليفة المسيح .

ان البرهان الذي تعطونه على ايمانكم بهذة الكنيسة الراسخة كالجبال ، لا ينال منها الهراطقة الا ما تنال الرياح من الرواسي ، ان البرهان الوحيد على ذلك هو الخضوع المطلق لسلطتها الممثلة بسيدنا راعي الابرشية الساهر عليكم كما يسهر الراعي الصالح علي خرافة .

وقد علم سيدنا مؤخراً ان ابليس بدأ يدس اصابعه الشريرة في هذة الرعية المباركة التي تحافظ منذ القديم على تقاليدها المقدسة وطاعتها المطلقة لرؤساء الطائفة الذين يقودون خطواتها الى الخير والصلاح منذ القرون القديمة .

قد علم سيدنا انه دب خلاف بين الرعية على امور تتعلق بخادمها ، لذلك اوفدني سيادته لاحقق بهذه المسألة واحل الخلاف القائم ، مستنيراً بأشاراته الغالية التي

زودني بها ساعة مجيئي .

فأنا اطلب منكم ايها الاخوان الاعزاء ان تتأكدوا اني ما جئت الا لاعيد المياه الى مجاريها ، ما جئت الا لأبعد اصابع ابليس الممتدة الى حياتكم الهادئة المقدسة ، لذلك اطلب منكم ان تبعدوا عنكم تجارب الشيطان وان تذعنوا لما سأقرره مع اعيان قريتكم فيما يختص بخادم رعيتكم .

ياخوتي الاعزاء .

ثقوا ان راعيكم الصالح ، الساهر على خيركم وحياتكم الروحيه لا يوفر جهداً ولا مشقة على نفسه لتكونوا انتم دائماً في طمأنينة دنيوية وروحيـة وقد اوفدني لأكون رسوله اليكم ولاصلح كل ما اختل من شؤونكم ، فكونوا انتم بدوركم طائعين لاوامره متمسكين بأهداب الايمان المقدس لتساعدوني على القضاء على كل خلاف مزمع ان ينشب بينكم .

« بعد القيام بهـذه الذبيحة المقدسه سأجتمع بأعيانكم في بيت وكيل الكنيسه لنحل المشكلة البسيطه القائمه بينكم وبين كاهنكم وسأكون مستعداً ان اسمع كل من يريد ان يبدي رأياً بهذه المسألة .

واني اخيراً بالنيابة عن راعيكم امنحكم بركته طالباً من الله تعـالى ان يحفظكم من كل ما يمكن ان يعكر حياتكم والسلام لجميعكم . »

كان قداس النائب حبرياً رائعاً ، وتهـافت الناس من القرى المجاورة كانهم مدعوون الى وليمة روحية نادرة المثيل .

بعد الموعظة عاد المنشدون الى الترتيل بانغام مؤثرة ، وعاد الحفـل الى الغرق في امواج من الروحانية النازلة من جو المذبح ، تكسوها روعة وجلالا مرافقة النائب بصوته الجميل وحركاته الحبرية الجليلة .

قامة منتصبة واقفة كبرج متحرك مكسو بالحرير والقصب المنمق المزركش ، ولحية طويلة يخططها البياض ، واشارات متزنة متسقة ، وكلام منغم واضح اللفظ مفخم ، كل ذلك كان يتسق في قداس النائب ليوحي الجلال والوقار والتقوى .

اما بونا الياس فكان واقفاً عن يمـين رئيسه لابساً قميصه الابيض وبطرشيمه

العادي ، يجمع يديه غالباً بالقبضتين ، ويرافق القداس بتمتمات خافتة ، منتظراً في الوقت نفسه امراً من سيده ليقدم له او ليأخذ منه آنية من اواني المذبح ، كانه عبد حقير في حضرة امير جبار !

في هذا الجو المفعم بالبخور والتضرعات ، بالجلال والوقار ، بالانغام والعواطف ، بحرية المسيح وعبودية الانسان ، بمساواة الناصري وطبقات البشر ، بمحبة ابن الانسان المثالية المجردة من كل غاية خاصة ونزعات الناس المقيدة بالرغبات الوضيعة ، في هذا الجو الجامع اصح صورة ترتسم فيها متناقضات الانسانية ، اقيمت حفلة القداس لذكرى ذلك الذي جاء لينقذ الانسان من طقوس اليهود الجامدة ، ذاك الذي فجر في قلب الانسان ينابيع الرحمة والمحبة والمساواة والاخوة . ومنذ ذلك الحين يحاول الانسان نفسه اغاضة تلك الينابيع ليعود الى طقوسه الوثنية واليهودية الجامدة .

ولما انتهى القداس وصحا الجو حيث كانت تتيه عواطف الناس المنبهة بالاشكال والصور ، لما اسدل الستار على كل ما كان يجري على المذبح ، لم يبق في ذهن بعض الافراد ، المتنورين بالفطرة ، الا صدى لآيات الانجيل المقدس . فالكلمات المغذاة بقوى روحية لا تفنى ولا تشيخ ، نفذت الى قلوب المؤمنين بنشاطها الروحي ، وجددت بذر المثل العليا التي صلب ابن الانسان من اجلها .

وانحل القداس فخرج الناس افواجاً ، وقف البعض منهم في باحة الكنيسة يستعرض الخارجين ، ومضى البعض في طرقات القرية المتعددة . وكنت ترى الكل : نساء ورجالا واولاداً ، في ثياب العيد ، عيد قدوم النائب ، وكنت تسمع هنا ضحكة عالية ، وهناك كلمة اعجاب بالنائب وقداسه ، وهنالك نكتة تهكم على القسيس وبساطته ، بينما كان الشبان يتبارون في قرع الجرس معلنين انتهاء القداس الاسقفي . ولم تمض دقائق حتى عادت الكنيسة الى سكونها على كتف الوادي ، وأوى كل الى بيته يتحدث عما رأى ، وينتظر نتيجة زيارة النائب .

VII

اليوم يوم حافل عند ام طنوس واقاربها وجيرانها : النائب يتغدى عندها . لم تسمع القداس — لا هي ولا اهل بيتها . فالواجبات واستعدادات الغداء منعتهم . هم في حالة قاهرة . أليس وجود نائب المطران ضيفاً قوة قاهرة ؟

قبل الفجر بدىء بذبح الديوك وملشها في الماء الساخن . وعند الصباح توزعت الاعمال بغير نظام ، على كل من قطوع ليشتغل . العجائز تنظف الديوك ، والفتيات تنقي البرغل والرز ، وذوات السواعد القوية تدق الكبة ، وهناك من يطبق المحاشي ويرصفها رصفاً فنياً في القدور الكبيرة . اما التعريقة والمزه فان الصبايا والشبان يشتركون في تهيئتها وترتيبها ، ومشهور ان النائب يحب « الدمعه » لذلك وجب ان تكون طاولة التعريقه مشكلة منوعة ، تشهي الاكل والشرب معاً .

بين الفينة والفينة كانت تمر ام طنوس بدورة عامة على « الورشة » العاملة منذ الصباح لغداء النائب ، وغالباً ما كانت تقول مداعبة : « يجب ان تبيضوا وجهي اليوم » والكل يجيبون : « كلنا بامرك يا ام طنوس » .

وبينما كان الجميع منهمكين بشغلهم اذا بولد صغير يركض ويقول : « جاءوا! جاءوا » واطلت ام طنوس من باب القبو فرأت موكباً يسير الهوينا نحو بيتها ، يتقدمه سيادة الخور اسقف كانه قائد يتقدم جيشاً غير منظم . واستنشقت ام طنوس الهواء ملء رئتيها ، شامخة برأسها ، كأن خمرة الوجاهة رنحت هامتها واعطافها ، رغم انها لم تكن راضية عن هذه الزيارة

وصل الموكب واستقر صاحب السيادة في صدر « المربع » يحيط به شيخ القرية وبو طنوس وبونا الياس ، وقد توزع باقي الحاضرين على كل المقاعد وبقي نفر كثير على الابواب وخارج البيت ، يطلون الواحد بعد الآخر ليتمتعوا بنظرة الى صاحب

السيادة . اما سيادته فكان مستوياً في المقعد الكبير ، تتراءى لمعات ارجوانية من حركاته ويشع خاتمه المرصع بجوهرة كريمة ، تتدلى على صدره سلسلة ذهبية ، تغطي اكثرها لحية بيضاء طويلة تزيد الوقار وقاراً ، ويظهر بعدها ، فوق الزنار البنفسجي صليب مرصع ايضاً بجواهر كريمة متنوعة .

اما وجهه فطويل ، تعلوه جبهة عريضة ، وتنطلق منه نظرات حادة فيها السيادة وفيها القوة وفيها اشياء مبهمة .

كان بونا الياس جالساً الى يسار الخور اسقف ، تتجاور يداهما على المسند فتلتقيان الانظار بالتباين الظاهر بينهما . فالنائب يلقي يده الناعمة ، الناعجة ، يتلألأ فيها كحجر كريم براق ، بينما القسيس يجاورها بيده الخشنة المتصلبة ، تنفر منها الاعصاب القوية ، وتلازمها ، ولو بعد الغسيل تماماً ، مسحة من التراب غدت جزءاً حياً منها ، لا يؤثر عليها الصابون والماء .

كان بونا الياس حاسراً الرأس ، صامتاً ولكن كل ما في وجهه العظمي ، وعينيه الغائرتين ، ونظراته الوديعة من آن الى آخر ، وكل ما في يديه من آثار ناطقة في سكوتها وسذاجتها ، كل ذلك كان يتكلم بفصاحة نادرة لمن يعي ويفهم .

ولكن الجماهير لا تؤخذ الا بالمناظر الخلابة والمشاهد المغرية ، فان النائب كان يجذب الجميع اليه . مرت العجائز والصبايا يقبلن يده ، ويتبارکن بالخاتم المقدس ومر الرجال كلهم يقبلون اليد والخاتم ، يطوون ركابهم قليلاً ، علامة الخضوع التام ولا يرفعون انظارهم ، كانهم امام عاهل يابابي قديم .

قالت احدى العجائز لام طنوس بعد ان اخذت بركة النائب : « هذا مطران! »

وقالت اخرى : « بيكفيك هالقداس الحلو ! »

وقالت ثالثة : « شوهالبشتي ، بالحقيقة شيء بيخشع ! »

وقالت رابعة : « الله كملها معه ، هالخلقة الحلوى ! وهالليس الجميل ! هيك يكونوا الخوارنه ! » فضحكت جارة لها وقالت : « هاذا مش خوري يا شاطره ، هاذا مطران ، طبعاً المطران مش القسيس ! »

كانت انظار الجميع عالقة بالنائب الضيف ، وبجاره القسيس ، الممثل في نظر

الناس ، الصورة المعاكسة لهذا الجلال الكهنوتي المتجلي في نائب المطران ، وكم من عجوز قالت في سرهـا عند ما رأت الكاهنين المتجاورين : « اهذا كاهن وهذا كاهن ؟؟ !! .... »

لم يطل الوقت حتى كانت السفرة تجهزت فأتت أم طنوس ، والكبرياء والجبور يغمران كل حركاتها ، تقبل يد النـائب وتؤهل بتشريفه ثم تـدعوه ليجلس ويبارك المائدة !

— دعوتك الآن في محلها ، يا ام طنوس ، لاننا في الحقيقة جعنا ، تفضلوا .

وجلس صاحب السيادة ، مترئساً الطاولة ودعا الآخرين الى الجلوس ، ثم طلب بصورة خاصة ان يكون بونا الياس قبالته وقريباً منه في الوقت نفسه .

كل من لم يكن مدعواً للجلوس الى الطاولة الكبـيرة خرج من المربع اما ليأكل في محل آخر ، او ليتمشى خارجاً الى ان يكون انتهى الغذاء او لينصرف الى بيتـه .

ولم يبق في المربع الا مـن اراد الاشتراك في المناقشة التي ستدور بين النائب واهل القرية من جهة وبونا الياس من جهة ثانية .

بدأ صاحب السيادة بالأكل والكلام معاً .

— لندخل الان في الحديث الذي جئنا من اجله .

— تفضل ، سيدنا ، قال البعض .

وقبل ان يبدأ النائب بالكلام ، اومأ احدهم مـن الخارج الى بو طنوس ، فأستأذن وذهب ، ثم عاد بعد هنية وهمس في اذن النائب : « هذه حسنة قداسين عن روح والدي العاطي » ثم سلمه ليرة عثمانية ذهباً .

وقبل ان يعود الى محله ناداه احدهم ايضاً فطال غيابه نحو خمس دقائق ، ثم عاد حاملا لائحة صغيرة قدمها الى الخوراسقف وناوله خمس ليرات عثمانيـة وقال : وهذه ايضاً حسنات قداديس .

— لا لزوم ان يكلف النـاس نفوسهم ، لا لزوم ! » قال سيادته وهو يضع الليرات في جيبته .

— تفضل اجلس ، يا بو طنوس ، يجب ان نصل الى حديثنا الرئيسي .

« يا اولادي الاعزاء .

من مدة تصل الى سيدنا راعي الابرشية ، شكاوي على بونا الياس مؤداها ان حضرته لا يقوم بواجباته ولياقاته كخادم رعية حسب المألوف ! وكان سيادته يؤجل التحقيق بهذه المسألة الى وقت زيارته الرعيـة ، واكن يظهر ان البعض الحوا في الاونة الاخـيرة ليتدخل سيادته فارسـلني اليوم للتحقيق . فارجو الان ممن يهمهم هذا الامر ان يتكلموا بصراحة »

— سيدنا ، اذا امرتم ، نحن نكلف حضرة شيخ القرية ان يشرح المسألة ، قال احدهم وبقي الجميع ساكتين تأييداً لكلامه .

— بالاختصار نقول لكم ، يا سيدنا ، قال الشيخ ، ان الحالة التي يعيش فيها بونا الياس لا تليق بنا . وقد نبهته مراراً فلم يهتم لتنبيهي . سيادتكم تعلمون ان قريتنا هي منظورة في المنطقة ،لذلك تكثر الواجبات واللياقات علينا ، وبونا الياس لا تهمه الا واجباته الدينية ، اما الواجبات الدنيوية فيهملها تماماً . وكما هو معلوم لديكم يا سيدنا ، الناس لا يعيشون فقط بالدينيات ، بل بالدنيويات ايضا . بونا الياس شغلته فقط الكنيسة والارض ولا يزور احداً الا في حالة مرض او موت ولا يرافقنا في اية نعوة ، فنذهب نحن وحدنا كأن لا كاهن لقريتنا ! هـذه هي كل المسألة ، وهي بسيطه جداً . اذا كان لا يريد ان يغير معنا سلوكه نشكره عـلى خدماته السابقة ونأتي بكاهن آخر .

— لقد فهمت المسألة ، قال الخوراسقف وهو يرفع كأس النبيذ الزكريتي المعتق بعد ان كرع كؤوسا عديدة من العرق المثلث

« يا بونا الياس ! قال النائب

« انت ابن عيلة لم ينقطع فيهـا الكهنوت مرة حسب ما عرفت عن سجل الابرشية ، فعمك كاهن ، وجدك كاهن وابو جدك ايضاً . الى ما هنالك من سلسلة من الكهنة تمتد الى ثلاثماية سنة وقد كنتم دائماً مرشدي القرية وخدامها الروحيين فهل يجوز الان ان تكون سبب نقض هذا التقليد المبارك الموجود في عائلتك وقريتك .

« الكاهن يا ابني هو اب القرية وامها ، هو معزيها ومشارك افراحهـا ، هو الساهر على مرضاها والمزوج عرسانها ، فهل يجوز ان تقوم انت بقسم من واجباتك وتهمل الآخر ؟

« اعمل لهذه الرعيـة ما هي تريد وانت تكون الريحان والمسرور ! لا تخالف رأي الشعب لان رأي الشعب من الله .

قالوا لك زرنا غالباً ، فلماذا لا تزورهم ؟ قالوا لك اسهر معنا ، لماذا لاتساهرهم ؟ قالوا لك رافقنا في مآتمنا وافراحنا ، لمـاذا لا تتمم رغائبهم ، الكاهن هو ملك الرعية هو ابوها وخادمها في اللوقت نفسه ، الم يكن هكذا عمك وجدك ؟ والكاهن يا ابني ، يجب ان يتنزه عن الدنيويات ، ويترك الارزاق لاصحابها ، وادوات الفلاحة لرجالها الان مقامه ارفع من هذا العمل وواجبه الديني ارفع من هذا الواجب الدنيوي . ما رأيك بذلك .

كان النـاس يطلون من بابي « المربع » ويشرئبون باعناقهم مصغين الى كلام النائب كأنه وحي ينزل عليهم من السماء .

— ألا ترى هذا الرأس الجميل ، قال احد الواقفـين خارجاً والمصغين ، كأن الملائكة ترفرف فوقه وتكلمه ، انظروا المسكين بونا الياس كيف اصفر وجهه .

— «هذا كلام معقول ، قال آخر ، ايش عنده حتى يقول بونا الياس الان ؟ »

— طولوا بالكم باجماعه حتى نسمع كلام بونا الياس ، لماذا تتسرعون هكذا ؟ قال ثالث .

وبونا الياس قد اصفر لونه حقيقة ، وانسدل على وجهه ، فوق الاصفرار ، غشاء من كآبة النساك المشتاقين الى مواجهة ربهم ، لانهم ملوا الحياة وترهاتها ، وكأن قواه الروحية الصامتة ، الزاخرة ، تأبت كلها على لسانه لتفك عقدتـه ، لتنطقه في هذه الدقيقة الحرجة ، فتعطي البساطة امثولة للتفلسف ، والتقوى امثـولة للسايرة النفعية ، والصراحة الصحيحة امثولة لمن يخاف الناس ومجابهة رغباتهم الصبيانية ، الشاذه .

— انا اشكرك ، يا سيدي على ما قلته عن عيلتنا . واحب في الوقت نفسه ان آخذ بمشورتك ونصائحك الابوية ، وان اكون طائعا لسيدنا راعي الجميع .

« ولكن انت تعلم ياسيدنا ، ان للانسان ضميراً ، وهذا الضمير هو الذي يقود خطواته في حياته ، ان كان علمانياً ، ام كاهناً .

«وانا رجل لي ضمير ايضاً ، وضميري ضيق ، وقاس ، لا استطيع ان اخالف اوامره واذا خالفتها احس اني زحت عن الطريق القويم .

« الكاهن يا سيدنا ، صحيح انه اب وام للرعية ، ولكنه ليس «مسبحة طقطق» للرعية ، الكاهن هو الاب الروحي والام الروحية للرعية !

« انا مستعد ان اعمل لهذه الرعية ما تريد من رغباتها الروحية ، انا حاضر لازور مرضاها ، لاسهر على من دنت ساعتهم لارشد الخطأة الى التوبه ، والضالين الى الطريق الحق ، اما ان اجاري كل واحد على رغباته ، فذلك لا ينطبق على واجبي كراعي لهذا القطيع الصغير . فالراعي لا تقوده خرافه بل هو يقودها .

لقد جاء ، وقت مرضي منذ سنوات ، من جاروها على كل رغباتها فتوصلوا حتى الرقص في الاعراس ، وحتى السهرات الطويلة هنا وهناك ، وتحزبوا لغايات ، لا مجال لذكرها الان ، فقسموا ، وزرعوا الشقاق بين ابناء العيلة الواحدة ، وقد رأت القرية اخيراً ما كانت النتيجة .

« واهم ما يلومونني عليه هو هذا الثوب البسيط ، العتيق ، هو هاتان اليدان الخشنتان من العمل الدائم ، هو هذا الانقطاع الى الله والى الشغل في الارض !

« اما انا فارى ما يلومونني عليه قوة تساعدني على خدمتهم الروحية ، وطريقة تضعني دائماً امام خالقي وجهاً لوجه ، طريقة تقربني من الله ولا تبعدني عنهم ، بل تبقيني بين ايديهم .

« فانا اخدمهم في كنيستهم ، واشاركهم في مصائبهم ونكباتهم ، واعيش معهم في حقولهم : انقي كروبهم ، كما انقي ارواحهم ، واغرس الزيتون والكرم والتين في ارضهم ، كما اسعى لاغرس الفضائل في نفوسهم ، واطعم اشجارهم بالاصل الجيد كما اطعم نفوسهم باعمال البر والتقوى .

هكذا عاش عمي وعاش جدي واعيش انا

«هم يقولون ان الايام تغيرت ، وان الكاهن اليوم يجب ان يكون غير كاهن الامس .

اما انا فضميري يقول لي ان هذه الحياة هي درع الكاهن الواقي في حياة القرية . فاذا ترك الحقل وقضى ساعات فراغه في التنقل من بيت الى بيت ، لابد ان تزل به القدم ويسقط .

« خير لي ان ارفع القربان المقدس بيد يغشيها التراب الطاهر ، من ان ارفعه بيد ترجفها رجاسة قلبي ! .

«خير لي ان اشدّ حذاء برته الحقول والكروم من ان امشي بحذاء داس البيوت التي تخلف الشكوك ، خير لي ان اقضي ساعات فراغي في سياسة الاشجار ، فاعلم النشاط ، من ان اقضيها بالراحة التي تخلف الهواجس والافكار الغريبة ! »

— آ ! كتير مليح يا بونا الياس ! قال النائب بعد ان اخـذ مجة من الخمر ، انا جئت اذن لاسمع موعظتك ، لا لأعطيك ارشادات تقربك من رعيتك اكثر فأكثر! والكهنة اذن ، ما عادوا مقيدين بتعليمات رؤسائهم بل ضميرهم هو الحكم بينهم وبين الرعية ! هذا بليغ جداً . الا تذكر يابونا الياس ان عمك وجدك وسائر الكهنة في ذاك الزمان ، كانوا يسلكون ذلك السلوك بناء على اوامر راعي الابرشية ؟! ان الناس في ذاك الوقت كانوا بحاجة الى من يعلمهم النشاط ، وعمل اسلافك كان لتلك الغاية ، اما اليوم فالناس يستغنون عن ذلك ، النـاس اليوم يريدونك ان تكون لابساً لبساً لائقاً ، ان تكون مجارياً العصر الحاضر ، ان تعيش عيشة مرفهة تتلاءم مع مقام الكهنة الراقين ، المتعلمين ، وانت ترفض ؟!

«تقول انك تريد ان تعطيهم مثلاً صالحاً في شغل الارض ، وغرس الاشجار ، الا يعطى المثل الصالح الا بهذه الطريقة ؟

— حاشا ياسيدنا ، ان اقصد وعظك ، كما قلت ، فانا كاهن بسيط ، ضعيف اطلب المعونة الروحية من الجميع . ولكن انت سألتني رأيي وانا اعطيته بكل بساطة ، وحسب وجداني ، فأرجوك ان تأخذه كما اقصد به .

« حاشا ان ادعي ياسيدنا ، اني اشتغل في الارض فقط لاعلم الناس ولاعطيهم مثلاً صالحاً ، فانا فقير الى قبس الصلاح افتش عنه في كل نفس من نفوس هؤلاء الفلاحين ، اخواني وابناء قريتي انما انا احب هـذه الارض ، ياسيدنا ، احب ان

اغرس في تربتها ساعات فراغي وقوى جسدي ، فتنبت اشجاراً جميلة مثمرة ، تنفع اهلي وتمجد الخالق معي ، احب ان اكرس للارض عزم جسدي كما كرست لله ولهذه الرعية قوى روحي ، فيتعظم ربي بشغل يدي كما يتعظم بترتيل لساني وقلبي!

«وانا لا احس اني اقدر ان اعيش بدون عمل ، الله لم يعطني النعمة والمقدرة لاكون مبشراً ، ولم يهبني ارادتك المقدسة لاحيا دائماً بين الناس قوياً على كل تجربة انا اخاف التجارب ، اخاف البطالة ، اخاف حتى الراحة ، وانا اقر بعجزي . وقد رباني المرحوم عمي والمرحوم جدي على حب ثلاثة اشياء : الله ، وهذه الرعية ، والارض ، واحس اني مرتبط بايماني بالله ، وبعواطفي لابناء هذه القرية الاحباء ، وبحبي لهذه الارض التي تجذب الى اعماقها كل فكر سيء كما تجذب الحربة الممغنطة الصاعقة ، والناس يا سيدنا يبتعدون من جيل الى جيل عن الارض ، وامسوا يخجلون من الشغل فيها ! فهل من ضرر اذا بقيت انا قائماً بواجباتي حسبما يرتاح ضميري ، خصوصاً وانا اجتاز سن الكهولة ، وداخل في الشيخوخة القصيرة التي تقود هذه النفس الى خالقها لتتقبل الدينونة العسيرة انا لا اطلب شيئاً من الرعية . احب ان اخدمها مجاناً ولكن على الطريقة التي عشت عليها ، فان كانت تريد كاهناً يجاري العصر وضروریاته الجديدة ، فليكن لها خادم آخر وانا اكون خادماً له ولها . »

عند ما توقف بونا الياس عن الكلام ، منتظراً بوداعة القديسين جواب النائب وحكمه ، هز الشيخ رأسه ، وقطب حاجبيه ، ثم مال نحو النائب وهمس في اذنه : « عبثاً يا سيدنا ، هو كلبان على الشغل ، لا يمكن اصلاحه ، هو يعبد الارض ، وهل يعبد الإنسان ربين ؟ »

وكانت الخمر اخذت تلعب برأس الخوراسقف ، ولاحظ ان السامعين تأثروا بكلام القسيس الساذج وبدت علائم الاقتناع على وجوههم ، فاراد ان ينفذ كلامه وارشاداته ، ولكن بقوة الخمر ، وان يستعيد ما بدأ يضعف من الاعجاب بشخصيته !

— لقد قال سيدنا المسيح يا بونا الياس « اترك كل شيء واتبعني » ونحن اما

ان نكون كهنة واما ان لا نكون . اما ان يكون لنا رؤساء يأمروننا واما ان نكون علمانيين احراراً ! أما ان نكون الاثنين معاً فذلك يمسي شذوذاً عن الدين ، وتمرداً على اوامر الرؤساء . سيدنا امرني ان اطلب اليك ترك شغل الارض لاهله لتكرس كل وقتك للرعية ، واذا لم تكن مستعداً للتقيد بهذه التعليمات ، يمكنك ان تعود الى الدير حيث كنت ! لا تقدر الرعية ان تحترم كاهناً تكون المنجل دائماً معلقة بزناره ، والحبل ملفوفاً على وسطه ، والمعول على كتفه . تريد كاهناً تقدر ان ترفع رأسها به . وانت جئت الى القرية لتخدم الرعية ، لا لتشتغل ارزاق اخوتك ! والمسألة لا تقبل جدلا ، والله لا يقبل شريكاً معه ! فأما هو واما الارض وانت عليك ان تنقي الان بين الرعية والدير ! »

— لا بأس ، قال بونا الياس بانكسار واذعان ، انا انزل عند ارادة الرعية وارادتكم واعود الى الدير !

فسكت الجميع كان اصاب المتآمرين فشل تام . وهز بوطنوس رأسه وهو يقول في سره : « فليذهب الى الدير طالما هو لا يقدر ان يجاري الرعية حسب اهوائها وطالما الناس امسوا يقدمون القشور على الجوهر .

— نعم انا ذاهب الى الدير اي متى تريدون ، اكمل بونا الياس . اذا كان حب الارض التي شربت من عرق ابي واجدادي امسى خطيئة ، اذا كان الابتعاد عن التجارب صار جريمة ، اذا كان الهرب من الشكوك ومن يسبب الشكوك يعد سيئة لا تغتفر ، فانا اقر بضعفي وعجزي واعود الى الدير . انا لم ادع اني قوي مثل ذلك الذي قال سيدنا المسيح : « اترك كل شيء واتبعني » لقد علم ربنا انه يقوى على تنفيذ اوامره فأمره ، لماذا لم يجد الا اثني عشر رسولا بين الملايين ، ذلك لان الضعفاء كثيرون والاقوياء قليلون في العالم ، ان الله لا يطلب مني اكثر من طاقتي وهذه هي طاقتي اقدمها بدوافع ضميري .

« اتطلبون من راهب قارب الستين من عمره ، ان يتقمص في شخص كاهن شاب يهمه ان يساير رغباتكم ، لا يستوحي اعماله من ضميره ومن انجيله ؟ كان عليكم اذن ان تستبقوا اولئك الذين كانوا يخدمونكم خلال غيابي ، كان عليكم

ان تطلبوا الي ترك الرعية ، دون ان تزعجوا سيادة راعينا ونائبه ، وتعملوا هذه الضجة حول ناسك حقير مثلي ! الله يسامحكم ويسامحني - يا اولادي - دبروا الآن كاهناً يخدمكم فانا لا اريد ان اكون سبب اختلاف بينكم »

بقي الجميع ساكتين الا النائب ، فرفع رأسه ، واعطى هيبته استحقاقها وقال : « قد انتهت المشكلة اذن ، ونحن لا يمكننا ان نأمر بونا الياس باكثر من ذلك لانه راهب ، متى اراد العودة الى ديره ، يصبح خارجا عن نطاق سلطة سيدنا »

— ماذا تقولون اذن ؟ قال بو طنوس

وكان بونا الياس ، ساكتا هادئاً ، ينتظر قرارهم ، كما انتظر المسيح حكم بيلاطوس والكنهة !

فقال احد الحاضرين :

— اتسمح لي بكلمة خاصة ، يا بوطنوس ؟

وخرجا معاً مستأذنين من صاحب السيادة ، ولما صارا خارجا احاط بهم من كانوا ينتظرون خارج المربع . فاكمل الشخص نفسه قائلا : « والله يا عمي بوطنوس ان عملنا لا يجوز . وقد اقتنعت بكلام بونا الياس اكثر مما اقنعني كلام النائب . ذاك كلام يخرج من اعماق القلب والضمير وهذا كلام من يريد ان يسايرنا حتى في خطأنا . كيف يقول لبونا الياس : « اترك كل شيء واتبعني » وله البساتين العديدة في السواحل ، وقد اشترى هذه البساتين مما يأخذه ثمناً لصلواته . وهذا الكاهن المسكين يقوم بكل مراسيمنا ويشتغل لوجه الله . اتريد ان نجرده من كل عواطفه نحو اخوته .

« ارى يا بو طنوس ، ان نؤجل المسألة ونصرف النائب ، قائلين له اننا نعطيه الجواب بعدئذ »

— هذا هو الصواب ، قال اربعة اشخاص في وقت واحد ، ثم اكمل احدهم « والله عيب علينا ان نكافيء القديس بهذه المعاملة . نرده الى ديره مكسوفاً بعد ان خدمنا مجاناً ، يرفض حتى تقدماتنا له في الاعياد . »

وظهرت على وجوه الجميع علائم التأييد لهذا الكلام فشعر بو طنوس ان الرأي

العام، بدأ يميل الى القسيس، فصمم حالا ان ينفذ الآراء الاخيرة، وعاد الى المربع

فسمع النائب يقول : « اذن يمكنني ان اؤكد لسيدنا انك ستترك الرعية ، يا بونا الياس ؟ »

— نعم ، يا سيدنا ، وانا اعتبر نفسي منذ الان، اذا شئتم ، غير مقيد بالرعية ، بل بقوانين رهبنتي ، وعسى ان يكون ذلك خيراً للرعية . »

— عفواً ، يا سيدنا ، قال بو طنوس ، ارى ان الآراء متضاربة ولنأخذ وقتنا قليلاً في الموضوع ، ونعطيك الجواب في هذين اليومين . ليبق الان بونا الياس الى ان يكون قرّ رأينا النهائي . ثم همس في اذن النائب : « الرعية تخاف الكهنة الغرباء والشبان . لانها تلوعت في الماضي من سلوكهم وسوء آدابهم ، اتركنا نتروَ بالامر اكثر . »

— ماذا اقول اذن لسيدنا . انتم تعلمون ان اشغاله كثيرة واشغالي ايضاً ولا يمكننا ان نكرس اياماً عديدة لحل مسألة بسيطة كهذه .

فأطل اذ ذاك شخص من الباب وقال :

— يا سيدنا ، ان اجداد بونا الياس يخدمون هذه الرعية باهلها وارزاقها ، بافراحها واتراحها منذ مئات السنين ، أتتنازل بهذه السهولة عمن كرس السنين في خدمة كنيستنا وفي تقديم كل انواع المساعدات لنا ؟ هذا لن يكون ! نحن نشكرك على زيارتك ، وقد دفعنا لك تعبك حسنات قداديس واذا كان ذلك لم يكف زدناه ايضاً ، ولكن اتركنا نفكر في الامر قبل ان نقرر هذا القرار المخزي بحقنا .

فاحتد النائب اذ ذاك وقال بغضب :

— اذن لم يعد لسيدنا ولا لممثله ادنى سلطة على الرعية فهي تقرر ما تريد ؟ أمن اجل هذا جئت انا الى هنا يا بوطنوس ؟ !.. انني لاحظت في كلام بونا الياس وفي كلام بعضكم عدم احترام لسيدنا ، بل تمرداً على سلطته ! كنتم تقولون ان بونا الياس عاص في القرية ، لا يترك الرعية ، بل يدعي ان له حقوقاً مكتسبة على مذبح كنيستكم والآن عندما رضي القسيس بمغادرة القرية رفضتم القبول ، هل يكون سيدنا مضحكة في نظر البعض ، اي حساب يمكن ان اعطيه

عن زيارتي ؟ فتقدم آنذاك رجل الى الباب وقال بصوت عالٍ :

— نحن نريد ان يبقى بونا الياس في القرية حتى ولو كان عندنا كاهن آخر . بونا الياس هو ابونا ، هو جزء من حياة قريتنا لا يمكن ان نتنازل عنه .

« ان القرية تصبح يتيمة بدون ارشاداته الابوية ! ان ارضنا تبور بدون بركة يديه ! ان فضله يغمرنا جميعاً ، ومن المستحيل ان نتركه يغادرنا »

ثم مشى نحو الطريق لينصرف وهو يتمتم بصوت غال ليسمع النائب :

« والله شغله ! اتريدون ان ترجعوه الى الدير رغم ارادتنا . اتريدون ان تذهب اتعاب يديه للرهبان ! نحن بحاجة اليه اكثر من الجميع . لن يترك القرية ولو طبقت السما على الارض ! »

— الاوفق ، يا سيدنا ، قال بوطنوس ، بصوت هادىء ، ان تترك المسألة الآن لا شك ان ذهاب بونا الياس من القرية يحدث فراغاً في مجرى حياتها : فهو الكاهن وهو الكرّام وهو الزراع وهو محدد الارزاق ، وهو مطعم الاشجار ، هو يعرف اعمارهم وتاريخهم واحداً واحداً ، هو يقص عليهم حكايات القرية القديمة عندما يزورونه ، وهو يعصر زيتهم ويعقد دبسهم ويطبخ تينهم ويعامل خمورهم ، هو بالاختصار جزء من حياة كل فرد منهم . واذا كانوا يريدون فانا اكون مسروراً لانه نسيبي قبل ان يكون كاهنهم . ثم همس في اذنه : « لا تكون الا مسروراً ، يا سيدنا ، طمن بالك ، تعبتك عندي انا لم ارض بعد بما اعطيتك . »

— نحن يهمنا على كل حال ، قال النائب عندئذ . « ان تكونوا متفقين ، وطالما انتم رضيتم الآن فليكن ما تريدون ، وعندما تحتاجون اليّ انا لا اتوانى عن المجيء اليكم .

« وانت يا بونا الياس ، من الموافق ان تزور سيدنا وتقبل يديه ، وتطلب بركته وهو بدون شك يزودك بنصائحه وبالبركة الرسولية .

— بدون شك ، قال بو طنوس ، سآخذه معي المرة القادمة ليزور سيدنا .

— انا دائماً بين ايديكم وطوع اوامركم يا سيدنا . قال القسيس .

— اما الآن فيجب ان انصرف ، يا بو طنوس لان علي اشغالا كثيرة في الكرسي

عامر ! عامر ! يا بو طنوس .

ووقف صاحب السيادة مشيراً بالانصراف فاخذ الحاضرون يتقدمون لتقبيل يده وخاتمه وهرولت النساء من الحارة المجاورة يأخذن البركة . في هذا الوقت تقدم بو طنوس من الشماس ودس في جيبته مجيديين ، فقال له الشماس : ان شاء الله دائماً مقصد، يا بو طنوس !

ومشى الموكب يرافق النائب الى الطريق العامة حيث كانت تنتظره العربة ، فناول بو طنوس عوريجي النائب مجيدياً ، ونادى الى البيت قائلاً : « هاتوا جرة النبيذ حالا » فجيء بالجرة ووضعت قرب العوريجي . ثم تقدم بو طنوس اخيراً يودع النائب الجالس في العربة .

— لا تؤاخذنا ، يا سيدنا ، قصرنا بالواجب ، عذبناكم ، سنتشرف بزيارتكم قريباً .

— ما في عذاب ، يا بو طنوس ، خاطركم ! امشي يا حنا ! »

VIII

كان بيت بو جريس يغص باهل القرية في تلك الليلة . فالاقارب والمؤيدون اتوا يهنئون القسيس بانتصاره في ذلك اليوم ، فرحين ببقائه بينهم .

— الغريب عند الناس يا عمي القسيس ، قال حنا ابن اخ القسيس ، انه اذا كثر وعمّ خطأ في ظروف قاهرة ، عد الناس ذلك الشواذ قاعدة ومشوا عليها وحاربوا القاعدة الصحيحة . كأن المرض اذا تفشى بكثرة يصبح حالة صحية يجب تشجيعها ومحاربة الصحة ؟ ! : . . .

« لو علم الناس من هم الذين كانوا اساس الحياة في هذه الجبال لما انتقدوك وحاولوا حملك على الكسل ومسايرة اذواقهم المريضة . ان الاديار هي الآثار الاولى للحياة في هذا الجبل . ولولا هذا الدير القديم لما كانت وجدت قريتنا على هذه

التلة الجرداء .

« ولكن الايام تبدلت وتبدلت معها كل مقاييسنا للحياة الحقيقية . فالكاهن الذي اتقن اللاتيني والفرنسي هو الكاهن الصالح وهو المدبر الحكيم في هذه الايام . مع اننا نعلم ان الذين اسسوا هذه الطائفة العظيمة ونظموا ووضعوا دستورها ، وحفظوها طوال اجيال الانحطاط الطويلة لم يكونوا يحسنون الا لغتهم السريانية ، وكانوا بدون شك ، يقومون باعمالهم العقلية العظيمة مع ممارستهم شغلهم اليومي في الارض . الارض كانت لتمرين اجسادهم على محاربة الكسل ، والمباديء السامية كانت لتمرين نفوسهم على ممارسة الفضائل »

— هذا صحيح ياولدي ، قال بونا الياس ، وعسى ان تعود تلك الايام المباركة . الله كريم ! سوف تعود »

« في تلك الايام ، اكمل حنا ، لم تكن الفضائل تكمن في لغة من اللغات الاجنبية ، ولا في زي من الازياء الحديثة بل كانت تظهر من معادن نفوسنا ، ومن اعمال البر والصلاح التي كان يقوم بها اجدادنا .

« كيف يجوز ان نعدّ اتقان لغة اجنبية مقدرة فكرية وتفوقاً عقلياً ، وامتيازاً للكهنة يوصلهم الى درجات كهنوتية عالية .

« وكيف يجوز ان نعتبر الكسل والتواني والتنعم براً وتقوى وصلاحاً ؟ ولكني بصراحة اقول : ان ما شجع الاكليروس الجديد على التورط في هذا النهج الشاذ هو سكوت الشعب عن اعمال الاكليريكيين . فالناس يعتقدون ان الاكليريكي هو مقدس لا يجوز انتقاده والبحث في شؤونه . وهو قد اكتسب هذه العقلية ، طول الزمن ، وامسى يؤمن بقدسيته ، لذلك هو يغضب ويثور ويتوعد ويحوم كل علماني ينتقده ويبين هفواته . وهم ، بين بعضهم ، يسترون عن انفسهم ولا يفضحون اخطاءهم ، وهكذا تتكرر الهفوات والخطيئات حتى تسي ملكات في نفوسهم ! »

— ما هذا التساهل مع حنا يا سلفي ! هذا ولد كافر قد ضره ما تعلمه في المدرسة ! ياليتنا لم نرسله تلك السنة الملعونة ! لا تسمعني هذه اللهجة ياصبي ،

اسكت ! » قالت ام جريس بحدة وغضب .

— لماذا هذا الغضب يا ام جريس ، قال بوطنوس ، ان ما يقوله حنا هو صحيح ياليتكم ابقيتموه في المدرسة سنة اخرى لكان تنور اكثر ، نحن لا نريد ان ننتقد رؤساءنا الآن ، ولكن قول حنا هو عين الصواب .

— الشبان لا يُسمَعون يابو طنوس ، قال بوسليم ، صحيح ان رجال الدين يخطئون ولكن اما قيل لنا : « اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم » اذا سمعت الاولاد والشبان كلاماً من هذا النوع يبالغون بالتحامل على الرؤساء الروحيين ، نحن نريد ان نصلحهم ؟ ! الله يدبرهم »

— ما لنا وللتوسع في هذا الموضوع ، قال بونا الياس ، ليقم كل منكم بواجباته الدينية حسبما يعلمنا السيد المسيح في انجيله المقدس وما لكم الآن وللرؤساء ، فعسى الايام تصلح شؤونهم .

« انا اشكر عواطفكم نحوي ياأولاد رعيتي واطلب من العناية الالهية ان تساعدني لاخدمكم الى آخر نسمة من حياتي . »

— الله يطول لنا عمرك يا بونا الياس ، صاح اشخاص عديدون ، انت كنز ثمين في هذه القرية .

— نشكر الله ، قالت عجوز من احدى الزوايا ، نشكر الله ان المسألة انتهت على سلامه . تصوروا حالتنا بدون بونا الياس في هذه الضيعة ! لا اظن ان الضيعة تقدر ان تعيش بدونه . الله يطول عمره ليبقى اباً لنا جميعاً .

ثم انتقل الحديث عن اشياء قروية وعائلية ، ولم ينته الا حول منتصف الليل وقت تفرق الناس ، كل الى بيته ، لينام قريري العين بعد ان تأكدوا من بقاء بونا الياس بينهم .

IX

كان جد بونا الياس قد وضع وصية مقدسة منذ خمسين سنة ، تصميما تناقله أبناؤه واحفاده وتقيدوا به تقيداً تاماً : وذلك التصميم هو نقب كل اراضيه التي لم تكن مشجرة والتي لم تكن احراش صنوبر وسنديان . وكان بونا الياس في العاشرة من عمره وقت صمم جده على ذلك ، ومنذ ذلك الحين والعائلة تردد حلم الجد الذهبي وتسعى لتجعله غاية كل فرد : يسعى هو لتحقيقه وينقله الى ابنائه في حياته ، ويوصي به ساعة موته . ومن كان يعرف الاراضي البور والصخرية الواسعة التي تركها الخوري الياس القديم ، جد بونا الياس الحالي ، كان يظن انه من الجنون التفكير بمشروع من ذاك النوع ، قد تعجز عنه الدول . ولكن الخوري الياس النشيط ، الحكيم ، كان يعلم ما هو فعل المثابرة وما تكون نتائجها على كر السنين

وقد كان بونا الياس الشخص المشبع بروح تلك الوصية ، تعيش في داخله منذ خمسين سنة . فقد التقطها من فم جده عندما اوعى بها في احدى سهرات الشتاء ، وقد تدرب على طرق الشغل والنقب على يد جده مباشرة ، وفهم اساليب تنفيذ المشروع كله من احاديثه المتواصلة في ذاك الموضوع . حتى انه غدا ، وهو في العشرين من سنيه ، بعد موت جده باعوام ، يرى في نومه تلك البراري القاحلة ، النابتة بالشوك والصخور ، كروماً شقراء ، بنيت فيها المعاصر وارتفعت فيها العرازيل ، واصطنعت فيها الكهوف الواسعة لتقي الفلاح وقت الامطار المفاجئة .

وكان يسعى بونا الياس ، وهو شاب ، واشقاؤه فتيان حوله ، ليغذي ذلك الحلم بحياتهم فيصبح يقظة تعمل لتحقق نفسها عاماً بعد عام ، بل كان يضيف الى تلك الوصية شيئاً من الاحترام والقدسية حتى اعتقد اشقاؤه اخيراً ان عظام جدهم لن تكون مرتاحة في رمسها الا اذا حققوا الوصية .

وكاد المشروع يفشل والوصية تتلاشى من الاذهان عندما غاب بونا الياس عن البيت والقرية ، واعتكف في الدير خمس سنوات ، منقطعاً كل الانقطاع عن قريته وارزاق اجداده ، مكرساً كل اوقاته لصلوات لا نهاية لها ، ولا هو كان يحس انها ضرورية كلها لخلاص نفسه :

« أليس الشغل المخلص في الارض الطاهرة ، الكريمة وسيلة نافعة لاتصال الانسان بالخالق ؟ أليس تقليب التراب السخي ليغذي ويثمر ، فيشبع الجائع ويكسو العريان ، اجدى من تقليب الصفحات على « القرايه » وترتيل كلمات تتردد كل يوم حتى كادت تفقد كل معانيها وقوة حرارتها ؟ »

هذا ما كان يتراءى لفكر الاخ الياس ، ويمر كالسهم في خاطره احياناً ، دون ان يجرأ على التأمل فيه ، لان افكاراً كهذه تعد كفراً في نظر الطقوسيين

هو يحب الصلاة ، والتعبد ، بل يحب الكهنوت ويشعر انه مدعو ان يكون خلفاً لعمه وجده ولكنه يحس بملل وسأم في الحياة الرهبانية ، وهو لم يقصد من الترهب الا ان يكون كاهناً في قريته ، لاقسيساً في احد الاديار .

وبما انه كان كبيراً وامياً عندما احس بدعوة الى الكهنوت ، اشار عليه اقرباؤه انه يتعلم في الدير ليصير قسيساً ثم هم يسعون لاعادته اليهم والى بيت ابيه .

ان حياته في الدير كانت مستحيلة لانه ورث عن جده الخوري الياس بغضاً ومقتاً للرهبان وتطمعهم على الاهالي وارزاقهم رغم ماعندهم من الاملاك الواسعة . فقد كان لجده مشاحنات طويلة مع الرهبان جيرانه على حدود الارزاق ، لم تنته الا عندما اقام جده جداراً بينه وبين املاك الدير . واهم ماكان يشغل فكره عندما اصبح قسيساً هو تحقيق مشروع جده . فقد علم ان اشقاءه يتهاونون بالعمل ويختلفون على اشياء تافهة ويكادون يقسمون الارزاق وينفصلون عن بعضهم فتتلاشى بدون شك الوصية المقدسة ، وتنحل روابط العائلة التي كونت ، بدوافع الفطرة والنشاط المتوارث ، اكبر شركة زراعية تعاونية في تلك المنطقة الجبلية الصخرية .

وقد حاول ان يشتغل في الدير ، ليرضي قابليته وحبه للعمل ، ولكن كيف يمكنه ان يوزع نشاطه وقلبه على محيط يشتغل فيه الناس كانهم مسخرون ، يضيع

العمل المتقن بين تلك الفوضى الكسولة التي تثبط عزائم النشيطين المخلصين ، امثال بونا الياس فبعد ان صار بونا الياس قسيساً وعلم انه اصبح يقدر ان يحل محل جده وعمه في القرية ، امست الايام في حياته السئيمة اطول من السنين واسودت الدنيا في وجهه حتى كاد يتحول عن طريقه القويم المرسوم في اعماق ضميره لحياته كلها ، وقد ساورته افكار لا تنطبق على مزاجه الهادىء وفطرته الطيبة ، فحاربها بصبر منتظراً ساعة انقاذه من بيئة ، لا تربطه بها اية عاطفة ، بل تتمثل امامه كل يوم الادوار الرهبانية الجاهلة التي كان يخبره عنها جده وقت كان صغيراً .

ان عقلية بونا الياس المفطورة على العدل والمحبة والتواضع والنشاط وحب الفلاحين الذين قاسمهم اتعابهم وايام ضيقهم وتربية اولادهم بالتعب والتقتير والشقاء ، ان تلك العقلية الراسخة ، تشمئز وتثور عندما ترى الفرق بين حياة الرهبان المرفهين المرتاحين وحياة شركائهم العاملين ليل نهار دون ان يحصّلوا كفاف ايام الشتاء الصعبة

لذلك كان كل ما في نفسه من فضائل يدفعه ليعود الى قريته الصغيرة حيث اتحدت عاطفته بالناس وبالارض كما تتحد النفس بالجسد .

ولما عاد الى القرية ، منذ ثلاثين سنة ، اخذ ينتقل من بيت الى بيت ، كأن في كل بيت اطفالا يريد رؤيتهم وتقبيلهم واشقاء يريد التمتع بمشاهدتهم ، واخذ يدور في حقول القرية وكرومها كأن لكل شجرة سراً ينتظر ان تسره اليه ، او كأن في قلبه خزانات للمحبة ، اطفحها البعاد والحنين ، فأراد ان يوزعها على الناس والارض !

ومنذ ثلاثين سنة تجري من قلبه الطاهر ، على كل فرد من هذه القرية الحبيبة ، ينابيع الحنان والرأفة والمحبة ، ولا ينضب معين قلبه بل يزداد تدفقاً واندفاعاً . ومنذ ثلاثين سنة يغذي هذه التربة المباركة بكل قواه الجسدية وهو يشعر انه يأخذ من الارض ولا يعطي لانه يؤمن ان ذلك الشغل المتواصل هو الذي حفظ عزمه ونشاطه رغم دخوله في العقد السابع من عمره

X

قبيل الحرب الكبرى كانت وصية الخوري الياس القديم على وشك ان تتم . لم يبق الا تكميلات بسيطة : هنا جل صغير ، وهناك جهة من تصوينة ، وهنالك ارض منقوبة لم تنصب بعد ، لان الصيف داهم موسم التشجير فاجلت الى الشتاء القادم .

وما تراءى شبح الحرب حتى كان كل شيء قد تم بصورة كاملة ، وغدت « النقبات » التي بدأت شركة بونا الياس بشغلها منذ ثلاثين سنة ، تموج باشجارها وانصابها واخضرارها ، تحميها الاسرار العالية ، كانها ابناء الملوك ، بل هي فرق من رعية بونا الياس ، تألفت ، حسب اعمارها ، لتفرح قلبه وتمجد الخالق معه .

ولكن الشركة الجبارة ، انتهت من مشروعها الطويل منهوكة القوى ، فارغة اليد ، تستر حالها تستيراً الى ان تبدأ بساتين التوت والكروم الجديدة باعطاء اثمارها . وذلك لن يكون طويلاً : لن تمضي خمس سنوات حتى يغدو اشقاء بونا الياس ملوكاً مخفيين ، عندهم من موارد الشرانق والزيتون والنبيذ ما يكفل حياتهم الى ولد ولدهم .

منذ ان بدأوا بمشروعهم وهم يقترون على نفوسهم ، يكرسون قوة سواعدهم لنقب اراض جديدة ويعيشون فقط من موارد ارزاقهم . ولو كانوا اشتغلوا بالمفاعلة ، وهم احسن فعلة في المنطقة ، لكانوا جمعوا مئات الليرات الذهبية . ولكنهم فضلوا ان يتقيدوا بالوصية وان تكون ثروتهم اشجاراً نامية في الارض . هم ، كما كان جدهم ، لا يعملون لنفوسهم ، بل لابنائهم واحفادهم ، وها هي الان حياة احفادهم مؤمنة الى اجيال عديدة ، اما كان يقول جدهم الخوري الياس : « قفة شلوش ولا قفة قروش »

تنفس اعضاء الشركة الصعداء عندما تم مشروعهم ، وبونا الياس وقد قارب السبعين لم يعد يتعاطى الاشغال المتعبة . بل يرتب بعض الكماليات في كل نقبة ويفتش عن المطاعيم الجيدة في فصل الربيع . وهو رغم سنه ، ما يزال يقدس قبل الفجر ، وتطلع عليه الشمس في الكروم يرافق نموها اليومي ، كانها اولاد خلقت من صميم حياته ، يريد ان يزودها بما تبقى من نسمات حياته . هو يراها الرسول الامين الذي ينقل الى الاجيال المقبلة حماس نشاطه ، وسخاء عزمه ، ونقاوة قلبه . قد يشوه الانسان كل فكر ، وكل فضيلة ، وقد ينسى كل جميل ، وكل محبة ، ولكن الشجرة تنمي في كل غصن من اغصانها عطايا الانسان وتعطيها لابنائه مضاعفة بعناصر الارض وعناصر السماء ! أليست الشجرة احفظ من الانسان اذن للعهد والجميل ؟ . . .

ولكن بونا الياس لا يفكر بكل ذلك . بل يريد هذه الشجرة خادمة لقريته واحفاد قريته . هو يرى هذه الشجرة وسيلة لتخليد حبه لهذه القرية التي تعيش كعائلة واحدة والتي تحبه بكل عواطفها ، ويحبها بقلبه وساعديه وكل وجوده . لقد اشتغل ارضاً هي ملك اشقائه وهذه سنّة المحبة تخضع لنواميسها ويحافظ على تقليدها . ولكن عمله سيفرح قلب كل انسان : وهل سيمر ابن قريته العطشان على كرم اشقائه ولا يبلل حلقه بعنقود اشقر ناضج ، وهل ستمر العذراء بطريقها الى العين وهي جائعة ولا تقطف من تينة تتدلى اغصانها فوق الطريق ؟

ان العجوز الفقيرة ستأتي ايام الشتاء وتملأ ابريقها زيتاً من عند احفاد بونا الياس . والكهنة في الرعية لن يختاروا الا نبيذ الكروم التي غرسها بونا الياس « مسكة » لذبائحهم .

وفي الاعياد سيجتمع شبان القرية في بيت احفاد بونا الياس ويشربون ويترحمون على من ورث . هذه الصورة المبهمة التي تمر عواطف غامضة ، ولكنها لذيذة في خيال بونا الياس وقلبه تفعم ذلك القلب غبطة لا تضاهيها الا غبطة الذين يرتاحون بالعطاء والمحبة كما ترتاح الام باطلاق جنينها الى النور فتعطي ينبوع حنانها مجرى ليتدفق !

صحيح ان احفاد الخوري الياس خرجوا منهوكين من مشروعهم الذي اكل ثلاثة عقود من حياتهم واستهلك شباب ابنائهم وبدأ ينهك عهد الرجولة . انما الان يمكنهم ان يناموا ملء عيونهم . فثروتهم تنمو ليل نهار ويمكنهم الان ان ينقسموا قسمين : قسم يسوس الارزاق وقسم يشتغل بالاجرة ، فهم احسن فعلة واحسن فلاحين ، وفدانهم احسن فدان في المنطقة ، بل هم ارباب من اشتغل في الارض ، في المنطقة كلها .

وهكذا بدأ البرنامج الجديد لحياتهم ، منتظرين ان تنمو غلالهم وتريحهم قليلاً بعد عنائهم الطويل . وقد فهموا من القسيس ان لايفكروا بقسمة الاراضي الا بعد موته . هو قد عين لكل منهم حصته وهم قبلوا بذلك ، ولكن الاملاك لا تفرز الا بعد ان يغمض عينيه ، فعيناه تريدان التمتع بوحدة هذا البيت واراضيه الى آخر رفة من الجفون واخر نظرة من الحدقتين .

كان احفاد الخوري الياس ، اذن ، في بدء عهد جديد ، عهد راحة نسبية ، لان ثقل الوصية ازيح عن ضميرهم ، كانوا في عهد ازدهار حالهم عاماً بعد عام عندما تراءى شبح الحرب الكبرى .

وما عساها تهمهم هذه الحرب ؟ انهم عاشوا ثلاثين سنة بدون ان يدخل لهم متليك واحد من خارج ارزاقهم ، ولم يتضايقوا . اينهمّون الان وهم رجال عشرة ولهم ربع القرية كروماً وبساتين .

لهجت القرية كلها بسيرة الحرب إلّاهم ! استمروا في اعمالهم العادية ولم تمض سنو الحرب الاولى حتى كان في صندوق ام جريس ربة العائلة كلها ، مئة ليرة عثمانية ذهباً ، عدا عن الكسوة والاثاث لبيوت ثلاثة ولنحو خمسة عشر شخصاً اشتراها بو جريس في سنة ، وكان بو جريس ، وهو الوحيد الذي يحب الابهة في العائلة كلها ، يبتسم ابتسامة سخرية وازدراء ، كان يقول في نفسه : لن تنال منا الحرب غصن زيتونة خضراء ، وعندما سمع مرة ان الناس يستعدون ليزرعوا بساتين التوت والكروم قمحاً ضحك ضحكة عالية ثم قال بجد وحزم : « والله لن تعرف القمحة ارض ارزاقي ولو عرفت التربة جسدي ! »

XI

كان « البستان » احب محل الى بونا الياس من بين الارزاق كلها ، فمنذ بدء الصيف الى اواخر الخريف لم يكن يلتقى القسيس الا هناك في ساعات فراغه وانفراده . وقد ساعدت البستان عوامل عديدة ليكون المفضل : فهو قطعة الارض الاولى الذي نقبها بونا الياس بعد موت جده وابيه ، وقت كان اشقاؤه اولاداً لا يقدمون له الا مساعدات صغيرة ، وقد اتقن نقبه وعمار حفافيه ؛ ونقى اغواسه من احسن ما يوجد في المنطقة كلها ، حتى عندما ظهرت نصباته المتنوعة بعد ثلاث او اربع ساعات وبدأت تطعم التين اشكالا والعنب انواعاً سماه الناس البستان ولبسه هذا الاسم على طول السنين وتلاشى اسم « الصوّانة » الذي كان يطلق على ذاك المحل في الماضي .

والبستان هو اقرب اراضي بونا الياس الى الكنيسة والقرية ، بينما هو يجاور الاحراش المحيطة بالكنيسة .

ثم ان بونا الياس كان يحس وهو في البستان ، انه في ملك يخصه ، وهو لا يخشى تذمر اهل البيت من الضيوف العديدين ايام الصيف . اذ قد غدا معروفاً عندهم ان « البستان » هو محل اقامة القسيس في الصيف ، يستقبل اصدقاءه وضيوفه هناك ، حتى ان اهل بيته لا يترددون عليه غالباً لانهم يكونون مشغولين في الكروم الاخرى ، بل يرسلون زوادته ظهر كل نهار لتكفيه اليوم كله .

وقد وزع القسيس الارزاق كلها على اخوته والبستان لم يعين بعد وارثه . كانه اراد ان يشعرهم ان سلطته الشخصية تبقى على البستان الى آخر يوم من حياته . وقد ظن اهله انه سيخص البستان بجريس لان اتعابه كثيرة على الارزاق كلها ولكنه الى اليوم لم يقل شيئاً .

البستان هو الان مقصد الشيوخ والشبان والاولاد ، يأتون الى بونا الياس زائرين وهم يعلمون انه سيدعوهم ليأكلوا التين والعنب قطفاً من الاشجار ، اذا جاءوا صباحاً او مساء ، وقت العهود ، اما في ساعات الحرارة فعنده سلة عنب وسلة تين معلقتان دائماً داخل السقيفة ، وجرة ماء مسحر ، يضعها في الليل على سطح السقيفة قرب الخيمة ، ويدخلها صباحاً كي يحفظها باردة لزوار النهار .

وبينما يكون بونا الياس متمشياً في « بستانه » تسمعه من بعيد متكلماً كانه يخاطب احداً ، وتندهش عندما تقترب وتراه وحده فيخيل الى من لا يعرف اطواره وعواطفه انه خولط في عقله . ان شدة محبته لاشجاره يدفعه بدون انتباه منه ان يخاطبها كانها بشر امامه . فاذا اكتشف عشبة طفيلية اقتلعها من شلوشها قائلاً « من اين جئت يا منحوسه » ثم فسخها وقطع شلوشها ورماها في الارض لتكون غذاء للاشجار المثمرة . واذا وجد غصناً لواه حادث ما وغير اتجاهه ، حتى كاد يتشوّه منظره ، اعاده الى حالة طبيعية قائلاً : «من عمل فيك هكذا ، يا مسكين»؟ وعندما يجد جذعاً من الدوالي واقعاً من مكانه على الارض ، يرفعه على سلكه ويقول له « يا لله عربش لفوق » والويل للغصن اليابس الذى يلمحه بونا الياس في زيتونة ، فانه يستل منجله حالا ويقطعه من اصله ويأخذه معه الى قرب السقيفة حيث يضعه فوق كومة الاغصان اليابسة .

ان رعية الاشجار لا تزعجه كرعية الناس ، ولو اخذت كثيراً من قوته ؛ هي طائعة ، هادئة ، تنتظره بصمت ، هو يفهم كل معانيه ، وتناديه باثمار يانعة ، فتقرب قلبه الى قلبها ، كما يقرب الاطفال قلب الرجل من المرأة .

وعندما يرتاح بونا الياس في الكرم ، لا يكون دائما في السقيفة ، او في الخيمة بل له زوايا خاصة ينتحيها احياناً ، واشجار مفضلة يجلس بافيائها ، فالبستان كله يؤلف بيته الصيفي ، والاشجار اصبحت تعرف مواعيد مجيئه بالنسبة الى الوقت : فالتينة السوداء الكبيرة تنتظره غالباً بعد القداس ، عند بزوغ الفجر ، فتمتد اغصانها مقدمة التينات المعسلة بسكوت وحشمة ، وتود لو تمكنت من رفع حجاب اوراقها عن كل التينات الناضجة المتسترة في عبابها . هي لا تقصد ان تختفي عن بونا

الياس ، ابيها وامها ، ولكنها هربت من العصافر المتعدية ، فحرمت نفسها من القبلة الابوية .

وعند الظهر يكون غداء بونا الياس ، قرب السقيفة ، تحت الزيتونة الكبيرة ، الوحيدة التي كانت وقت كان البستان يدعى «الصوانه» ، فهي زيتونة جبارة قديمة تحتل نحو اربعمائة متر مربع من الارض ، زرع بونا الياس اغراساً عديدة حولها ، عندما نقب « الصوانة » فاعتبرت ذلك تحدياً لها ، وتعدياً على مساحتها الحيوية ، لذلك ايبست كل الغرسات الجديدة بجشع شلوشها الكبيرة المحتكرة ، ضمن مداها الحيوى الواسع ، كل عناصر التغذية .

اما عند العصر ، فلا يعرف اين يوجد بونا الياس الا اخصاؤه : فهو يعمل قيلولة قصيرة تحت العريشة البخورية في آخر البستان الى جهة الحرش . فقد نجحت «البخورية» كما هي معروفة عند العائلة كلها ، نجاحاً نادراً ، كدالية برّية ، لذلك استحقت ان تكون المختارة ، عند العصر طيلة ايام الصيف ، وان تكون لها خيمة خاصة . وبعد القيلولة المختصرة يأخذ بونا الياس شحيمته ويبدأ بصلاته وغالباً ما يأتي زواره في تلك الساعة ، فينادونه ولكنه يبقى مصلياً ، لا يهتم لندائهم ، فيجلسون متحدثين او متفكهين الى ان يطل عليهم بغتة فلا يعلمون اكان في الكرم ام هو آت من بعيد .

XII

في خريف ١٩١٦ لم يكن احفاد الخوري الياس احسوا بوجود الحرب . ولكنهم شعروا بخوف الناس من المستقبل . ولاحظوا ان استئجار الفعلة والفلاحين يقل يوماً بعد يوم فالناس ترجلوا بعد التواني والتخنث وتجردوا للعمل في اراضيهم خوفاً من مجاعة يتوجسون منها . والقريون لم يعودوا يفكرون بنقب الاراضي وتشجير الكروم ، بل بتحسين الاراضي السليخ يزرعونها قمحاً . وبونا الياس واشقاؤه لم يعد عندهم اية ارض سليخ بعد تتميم مشروع الثلاثين سنة ، فلم يفكروا الا

بمتابعة اعمالهم العادية ، كأن احاديث الناس لا تعنيهم ،

ماذا يزرعون ؟أيزرعون عواد التوت ؟ ايزرعون الكروم التي تنموا الان بمطاعيمها وتملأ الارض والسماء اخضراراً ؟ هذا طبعاً لا يخالج فكرهم

واحفاد الخوري الياس هم عائلة عديدة ، لا تقل عن خمسة عشر شخصاً ، يلزمها اربعة ارطال من الطحين يومياً عدا عن الحبوب الاخرى الضرورية ، وعن الملابس والكماليات .

ما دخل شتاء هذه السنة ، سنة ١٩١٦ ، حتى اخذت اسعار الحنطة بالصعود . والاسعار تقفز كل يوم قفزاً . فارتاع الجبل كله ، وتدفق الجبليون الى جونية وزحلة يشترون ما مكنتهم سعة يدهم من شرائه . وتهافتوا الى الارض يفتشون عن مساحات يزرعونها فلم يجدوا الا التوت مخضراً امام عيونهم والزيتون متموجاً على مرمى انظارهم ، والكروم آمنة ، متمددة ، تارة تتهافت على الارض وحيناً تتهادى في الفضاء فمنهم من قشوا البلان والشوك من الحقول وزرعوها ومنهم من تأسفوا على التوت ولكنهم خاطروا بزرعه ، ومنهم من حافظوا على التقاليد ، تقاليد تعزيز التوتة المباركة ، فرفض فكرة الزرع رفضاً باتا وانتظر تطور الظروف .

اما بونا الياس واخوته فلم يقبلوا فكرة الزرع ولا قبلوا فكرة التموين ايضا فهم لم ينتبهوا الا بعد ان امست كل اسعار الحبوب مضاعفة ، فظنوا ان هذا الارتفاع يعقبه هبوط وتريثوا .

وما جاءت الكوانين حتى بدأت الاسعار تثب وتثبات بعيدة تضاعف الاسعار اسبوعيا ، وصار من الصعب جداً على من لم يشتر بخمسة غروش ان يشتري بعشرين غرشاً . واخذ من لم يتمونوا يشترون بالرطل عوضا عن المشترى بالطحنة والقنطار وكان ذلك التريث ضربة عليهم لان الاسعار طلقت عادة التقلبات صعوداً ونزولا واندفعت في الارتفاع المخيف لا تهدأ ولا تتباطأ .

عند الغداء والعشاء كانت تمر احياناً قشعريرة من الخوف في جسم بونا الياس ، ذلك عند ما يجلس خمسة عشر شخصا ليأكلوا . فبعلمه ان بو جريس اشترى عشرين رطلا . فلا تمضي ايام اربعة الا والبرميل فارغ وام جريس تطلب حنطة . ولم يمض ذلك

الشتاء حتى فرغ صندوق ام جريس من الليرات العثمانية ، ولم يبق الا نصف قنطار من الزيت يمكن بيعه وشراء حنطة بثمنه .

— ماذا تظن يا بو جريس قال بونا الياس مرة لاخيه ، ايكون موسم القز جيداً ، واسعاره حسنة هذه السنة ؟ »

— بدون شك ، ايمكن ان يموت الحرير ؟ الحرير احسن من الذهب ! .

— الله يدبر امرنا ، يا اخي ! لم يعد امامنا الا موسم الحرير وهذه البقرات ، اما الزيتات فلا يجب ان نبيعها . ايبيع الانسان زيتاً ايام الحرب ؟

— لا تعتل همّاً يا بونا الياس ، عندك رجال يفتتون الصخور وانت خائف ؟ مهما اشتدت الحرب نحن قادرون ، بقوة الله ، ان نعيش ونحافظ على ارزاقنا . عندنا موسم الحرير ، وموسم العنب والتين ، وعندنا احراش نقطعها ونبيعها ، طمن بالك الله يدبر !

XIII

جاء موسم القز فاستقبلته القرية ، لاول مرة في تاريخها ، استقبال ضيف ثقيل ، فقد طلعت الاشاعات مسبقاً ، ان اسعار الشرانق ستكون ساقطة . وكانت اسعار الحبوب تتصاعد رغم قرب الحصاد .

كأن الحرب وويلاتها ومظالم اتراكها لاتكفي لتعذب الجبليين حتى جاء الجراد جيشاً متطوعاً لاتلاف المواسم والقضاء على كل موارد الشعب . فان جيوش الجراد عشيت في ربيع ١٩١٧ هضاب الجبل وسفوحه زاحفة مع اشباح المجاعة المخيفة ، فقاسمت الجراده الشريرة دودة القز المباركة قوتها ، وهاجمت الكروم والحقول كلها كانها نار آكلة ، تجتاح الهشيم واشتد الشتاء تواكبه المخاوف والهواجس ، ووقف كل عمل في القرى . فلا الفعلة ولا الفلاحون يجدون ملاكاً يشغلهم . ولا المكارون يجدون ما ينقلون على دوابهم الا الحطب ، ولايمكنهم ان يشبعوا تلك الدواب بل

تضعف من يوم الى يوم . كل من لهم املاك قليلة او ليس لهم املاك تحرز ، نزحوا الى السهول يفتشون عن معاشهم . وتهافت من بقي في القرى الجبلية الى الارض يزرع كل شبر منها . فكنت ترى الفلاحين يبذرون القمح في عواد التوت كانه سم يودع الاتلام ليقضي على ميراث الآباء والاجداد .

اما في النقبات والكروم الجديدة حيث تنمو النصبات بدلال كالاطفال ، فكان القمح وباء فتاكاً يخنق هذه الاطفال الوديعة المطمئنة ، كمجتاح بربري قاس .

وكانت حالة بونا الياس مع اشقائه صعبة جداً . بالكد قدروا ان يقطعوا الصيف والخريف من موارد موسم القز والعنب . وقد باعوا رأسين من البقر ليشتروا بعض الكسوة الشتوية . وها الشتاء يزحمهم واهراؤهم فارغة من الحبوب . ليس عندهم الا اغلال اراضيهم من زيت وزيتون وتين ودبس .

وقد احس بونا الياس بتحرج الحالة قبل الجميع . فاخذ فرصة وجود العائلة كلها على العشاء واراد ان يبحث موضوع الزرع ومونة الشتاء واشياء اخرى .

فقال مخاطباً بو جريس .

— والآن يابو جريس ماذا تقول ، وانتم كلكم ليعطنا كل منكم رأيه بهذه الحالة المخيفة . انتم ترون كيف يتسابق الناس الى زرع اراضيهم ، والجميع يؤكدون ان سعر الحرير سيكون ، الموسم المقبل ، اسوأ من هذا الموسم الماضي . وانتم تعلمون ياولادي ان اعتمادنا على التوت والقز . فالكروم لا تعمل لناشيئاً اذا كانت الشرانق ساقطة . ونحن خمسة عشر شخصاً يأكلون كل يوم ، لا تنسوا ذلك . والشغيل لا يضحك عليه بالاكل كالخواجه ، الشغيل يجب ان يشبع .

— الناس كلهم يقولون ان الحرب ستنتهي بعد هذا الشتاء ، قال بو سعيد الشقيق الاصغر . ونحن نقطع هذه الشتوية كيفما كان الامر ، بقوة الله . سوف اذهب انا مع بغلي الى السهل ، وهناك اشتغل بنقل الحبوب الى زحله وغيرها ، وكل خمسة عشر يوماً او شهر ارجع الى البيت واحمل لكم حبوباً بأجرة شغلي ، ويمكنني ان آخذ ام سعيد وسعيد معي ، اذا اردتم ، لاخفف مصروف الخبز هنا ، ما رأيكم ؟

— هذا رأي في محله ، قالت ام جريس ، والمكاراة خلقت لهذه الايام العسرة .

— وانا ، قال بو موسى ، اقدر ان اشتغل بتقطيع الحطب بالمفاعلة او بالمقاطعة ، وابقى قريباً من البيت . ويقال ان الفعلة يأخذون جراية كل يوم ، من الدولة ، عدا عن اجرتهم . واخونا بو جريس يبقى مع الاولاد كلهم ، لسياسة الارزاق والبقرات .

— اي متى قطعت حطباً بالاجرة اياماً على بعضها ، يابو موسى ، قالت ام موسى ، اتكفل حالك انك تثبت في هذا الشغل ؟ .

— من بعد امركن ، النسوان لاتسبقونا باعطاء الرأي ، اعيرونا «نسوطكم» ! قال بوجريس

— متى كان بونا الياس هنا ، لاحد يعطي اوامر ، قالت ام جريس بزعل .

— بوجريس ، يامرة اخي ، لايقصد اسكاتكن بل تهلكن قليلاً لنعطي راينا نحن ، قال القسيس . اذا اردتم رأيي ، فانا اقول ان المهم ان نبقى هذه الايام الخطرة قريبين من بعضنا لاننا نسمع كل يوم بأخبار العصابات تفتك بالمسافرين الى السهول وتسلبهم كل مامعهم . الا يمكنك ان تشغل بغلك هنا يابو سعيد

— اشغله بالحطب . الشغل كثير ولكن الاجرة قليلة ، بالكد تكفيني مع بغلي . اما في السهل فالعلف كثير ورخيص والاجرة غالية . نحن احسن من الناس؟ كلهم يذهبون الي السهل .

— الكل يذهبون ، ياخي ، ولكن نحن تعودنا ان لانفترق وتغيير العوايد صعب ،

— اذا كنتم تريدون شغلاً نافعاً ، اسمحوا لي ان افرّد حرش الصنوبر وحرش السنديان وانقل الحطب الى بيروت ، قنطار الحطب اليوم يساوي ليرتين قال بو سعيد .

تريد ان تقطع الحرش ؟ قال بو جريس بغضب واندهاش ، مات جدك وهو يوصي بالحرش ، قبل عشرين سنه لاتضرب فيه فأس ابداً .

عندما كنت اذهب لاقطع اغصاناً قليلة للعتره كان يحرصني دائما ويسألني من اين قطعت كل غصن . فهل يجوز الآن ان نبدأ بقطعه وهو في عز نموه ؟ .

— اهم شيء الان ، قال القسيس ، هو ان نقرر اذا كنا نزرع قسما من اراضينا قمحاً او لا نزرع .

— نحن نطلب رأيك انت ، قال بو جريس ، وهو يريد ان يرفع المسؤولية عن نفسه ، ثم هو يعلم ان القسيس لن يريد الزرع .

وبينما هم في هذا الحديث طرق الباب ودخل بو طنوس مع امرأته وولده طنوس . اهلاً وسهلا بعمي بو طنوس ، اهلاً وسهلاً ، قالت ام جريس ، وسعوا محلاً لعمكم ولمرة عمكم ! طنوس ! انت اقعد هنا حد مني .

وجلس الجميع فقالت ام جريس :

— طولتم علينا الغيبة ، يا قرايبنا ... اهلاً وسهلاً ...

— يا عمي بو طنوس ، قال القسيس ، ما الاخبار عندك ، ما رأيك بهذه الظروف القاسية ؟

— رأيي يا ابن عمي ، ان نزرع السطوح قمحاً اذا تمكنا . الحالة حرجة ، حرجة جداً ! اياكم والتهامل ، ارى نهزتكم بطيئة ، ولا الاحظ انكم مهتمون بالزرع ، أتريدون ان تموتوا كلكم ؟

— الله يدبر يا عمي بوطنوس ؛ قال بوجريس ، ماذا تريد ان نزرع ؟ انزرع عواد التوت ؟ اتريد ان نزرع النقبات ؟ ليس عندنا ارض سايخ مثلك لنزرعها .

— اتظن اني سأزرع السليخ فقط . سازرع كل شبر من الارض . ولولا خوفي من « الدلف » لزرعت السطح . ماذا يفيدنا الرزق اذا متنا من الجوع .

« انا جئت خصيصاً ، هذه الليلة لانبهكم . امس كان طنوس في زحله ، الحبوب تركض ركضاً بالصعود . بيعوا بعض رؤوس من البقر وتمونوا لان الغلاء سيكون فاحشاً في عز الشتاء . انتم تعلمون ان امركم يهمني كامر عائلتي ، متى خلصنا من هذه الحرب نجدد كل شيء ، المهم ان نبقى ، لا تتأسفوا على شيء ! من يعلم اي متى تنتهي الحرب ؟ ! أليس هكذا يا بونا الياس ؟

— بلا ، بدون شك ؛ اجاب بونا الياس ولكن اذا قدرنا ان نهدي هذه السنة ايضاً ، الا تظن انه ربما تنتهي الحرب ونخلص ارزاقنا من الخراب ؟

– عندك خمسة عشر شخصاً ، يابونا الياس ، كيف تريد ان تهدي ، قال بو طنوس ، أليس من الاوفق ان تكون الارزاق في خطر ، لا انتم ؟

– قولك عين الحكمة ، يا عمي بوطنوس ، قال جريس ولكن انت تعلم كم نحن تعذبنا وشقينا لنقب هذه الاراضي ، فقد كلفتنا دم القلب قبل ان نصبناها وطعمناها ، أنتلفها بسنة واحدة ؟ .

– زرع موسم واحد ، يا ابني ، لا يمكن ان يقتل الاشجار قال بو طنوس ، ازرعوا انتم هذا الموسم ، فاذا انتهت الحرب السنة القادمة كان خيراً ، وبادرتم حالا الى تسميد الاراضي المزروعة وفلاحتها اوجهاً عديدة في الموسم التالي ، حتى تستعيد ماويتها ، واذا لم تنته الحرب تزرعونها موسماً ثانياً وتضحون بالاشجار في سبيل حياتكم .

– يا عمي بوطنوس ، قال القسيس بحزن ، لا يعرف قيمة النقب والتشجير والتطعيم الا من تقوس ظهره من ضرب المهدة ، وانعقرت كتفاه من شد الحبل ، وهرس اصابعه مرات عديدة بالمخل وتقليع الصخور ! لا يعرف قيمة الشجرة الا من طعم النصبة مرات عديدة حتى صحّ مطعومها ورباه كما تربي الام طفلها .

انت انعم الله عليك ، ووفق ابنك في اميركا فيرسل لك المال بالميات ، ولا تشتغل بيديك مثلنا ، المسألة ليست سهلة علينا ولكن على كل حال معنا وقت بعد الى اواخر هذا الشهر .

فهز الجميع رؤوسهم بحزن تأييداً لكلام القسيس وخيم على الجميع صمت كئيب .

وكانت حنة ابنة بوجريس الصغرى مشغولة في « المد » ومعها سراج الزيت الصغير وما وقفوا عن الكلام هنيهة حتى جاءت حاملة صينية قش وضعتها على الارض امام ام طنوس . فتناول جريس الطاولة الصغيرة ، الواطية وقدمها لشقيقته الصغرى ، فرفعت اذ ذاك الصينية ووضعتها على الطاولة .

– لماذا هذا العذاب ، يابنتي ، يا حبيبتي ، نحن غرباء حتى تكلفي نفسك في الليل هكذا ؟

– اهلاً وسهلاً ، لا شيء من قيمتكم ، يا مرة عمي قالت حنة .

— حنة ! هذه قمر !.. دائماً منهمكة بعمها بوطنوس ، ما في لزوم ، ما في لزوم يا عيوني !

فنظرت حنة الى الارض وطفت حمرة الخجل على خديها تحت نظرات طنوس الحادة . وبعد برهة استعادت جأشها وتقدمت فاخذت صحن التين الناشف وصحن قلوب اللوز وقدمت لعمها بو طنوس قائلة : تفضل يا عمي .

— انا آخذ تيناً ، قال بو طنوس واعطي حصتي من اللوز الى طنوس . ما رأيك بذلك ؟

— رأيي كما تريد . ولكن طنوس عنده حصة وازيدها اذا كان يريد ، لا لزوم ان تعطيه حصتك .

— صحيح ، صحيح . له حصة . واظنه يرضى بحصته ، قال بو طنوس بمعنى مبهم !

فعادت حمرة الخجل تهاجم حنة فضحك الجميع ضحكة المرح البريئة . اما طنوس فابتسم فقط وكانت ابتسامة حنة اخف من ابتسامته .

— قرّب بحياتك ، يا عمي بو طنوس ، انت بعيد كثيراً عن الطاولة ، قالت ام جريس .

— يد العيش طويلة لا تخافي ، قال بو طنوس .

واخذ الجميع يتنقلون من الاثمار اليابسة المنقاة خصيصاً للمونة . وكان على الصينية التين المسطح المهبل ، والتين المطبوخ بسكر نثرت على وجهه قلوب الجوز واللوز ، والدبس المضروب ، والعسل ، ولفة من قمر الدين وضعت بدون صحن في نصف الصينية .

ثم قام جريس الى « المد » وعاد حاملا مخرّزاً وكباية كبيرة وقال : — « اريد ان اذوقك نبيذنا الجديد ياعمي بو طنوس .»

— تين ونبيذ ، ربما ضرني ذلك . ذوق طنوس هو اخبرني . والان ، على « فوقه » اي متى ستذوق لي نبيذاتي الجداد يا بونا الياس ؟

عندما تريد ، غداً امر من عندك

— راحت السهرة الآن ، يا الله يا ام طنوس هيي حالك !

« ولكن مسألة الزرع لا تهملوها . بعدئذ تأتي ايام الصيف ولا ينفع الندم . الله ينهي هذه الحرب حتى يرتاح فكرنا . »

— بكير ، بكير ، ياعمي بو طنوس ، قال جريس ، عد ومدّ حتى تسهرو عندنا ليلة

— رأينا كم بخير ، تصبحوا على خير .

— وانتم بخير ، اجاب اكثر اهل البيت .

وانصرف بو طنوس مع امرأته وابنه ، فعادت العائلة الى الجلوس وكل فرد منها واجم ، صامت . وبقي بو سعيد وبو موسى كأن السهرة تستأنف للنقاش في الموضوع .

كل شيء هين جداً على من يقطع من لحم غيره ، قال بو جريس وهو يهز برأسه .

— لو قطع رجليه ثلاثين سنة على شجارة « المطل » ونصب وطعم ثم قلع ونصب وطعم مرة ثانية لما كان يحكم على ارزاقنا هذا الحكم السريع بالاعدام

قال بو موسى : « المثل يقول ، ما لا تتعب به اليد لا تبكي عليه العين » وهذا صحيح اتظنون ان الانسان يحب ابنه لانه ابنه ؟ كلا ! انه يحبه لانه تعب عليه وسهر الليالي الطويلة على طفولته وتكبد المصاريف حتى رباه . »

— هذه عين الحقيقة ، قال القسيس ، من عذبنا من هؤلاء الاولاد بقدر ما تعذبنا شجرة حتى تسوي اثماراً؟ ليس عبثاً قول المثل : « الرزق عوض الروح » ان ما يتعب به الانسان يصبح جزءاً من حياته ، فانا اتصور لان كيف ستصبح هذه الكروم الجديدة اذا زرعناها !

— قد علمت ، يا اخي ، قال بو سعيد ، ان الناس في السهل لا يزرعون الارض قمحاً على سنتين ، بقدر ما القمح هو قاس ومنهك للارض . فهو يمتص كل شيء ولا يبقي شيئاً لغيره . فاذا كانت الارض تخافه هكذا فكم بالاحرى الاشجار المدللة التي لم تعرف ارضها عشبة برية في حياتها .

— انا لا ارى ان نستسلم للخوف ، قال بوموسى ، عندنا بقر وعندنا بغل وحمار وعندنا احراش ، لا يجب ان نفكر بالزرع .

— لا تنسوا ان عندنا اساور ومباريم تساوي لا اقل من مية ليرة ذهبية وعندنا فرشات ولحف عديدة لا نحتاجها . ويقولون ان هذه الاشياء تباع في السهول باسعار جيدة ، الناس يبدلونها بالحبوب .

— لم نصل بعد الى الاساور والمباريم يا ام جريس قال القسيس ، وعسى ان لا نصل وعلينا الان ان نتكل على الله ، وان نتوزع على اشغالنا باجتهاد والله يدبر امرنا . قوموا لننام الآن فقد طالت سهرتنا . تصبحون على خير .

XIV

دخل شتاء ١٩١٧ على الارياف اللبنانيه تواكبه اشباح واشباح . وما نزلت الميازيب وهبت الرياح المثلجة عاصفة من الشمال والشرق حتى احس الناس بعري يعرض اكتافهم وصدورهم لقساوة الصقيع ، ونجوع يوهن قواهم يوماً بعد يوم ، وتوجسوا اهوالا من الفاقة والامراض والمجاعة والموت في عتمات الشتاء الموحشة ، اهراؤهم خاوية ونظرتهم الى المستقبل عارية من الامل . اراد بعضهم ان يزرع فتعسر عليه البذار ، وخافوا ان يموتوا قبل ان يأتي يوم الفريك والحصاد ، واستصعبوا ان يرموا حبات في الارض هي ضرورية لسد رمق حياتهم ، فقدموها لاجوافهم مؤجلين بها موتهم ، مستسلمين الى خفايا الغد المذعرة .

رأى البعض ان الحياة في مغامرة يائسة يهيمون فيها على وجوههم في المناطق السورية البعيدة ، ينشدون القوت اينما وجد ويطلبون المأوى اينما شط ونأى ، معرضين انفاسهم المجاهدة لرصاص الاشقياء ، وثيابهم العتيقة لجشع اللصوص وقساوتهم . حملوا ثيابهم وما خف من رحالهم ، وعروا اولادهم وبيوتهم دون تردد ، هم يفضلون الحياة متسترين باطمارهم على الموت لابسين ثيابهم !

وتشرد الجبليون في مناطق مجهولة على سذاجتهم وقرويتهم المستكنة ، يناشدون مواطنيهم في حوران وجبل الدروز والشام اقواتاً لاطفال مجوعين ونساء جفت صدورهن من الحليب . ولاول مرة في تاريخ الجبل احس القرويون ان لهم في المناطق البعيدة اخواناً ومواطنين ولو من غير دينهم . فبينما كان الجبليون يسقطون في اسواق زحلة عشرات ومئات كل يوم على مرأى من الاحبار الامراء والتجار المسحيين المستكلبين على الذهب والارباح الطائلة ، كان الفلاحون في حوران او جبل بني معروف يقدمون للنازحين الجائعين غذاء وشغلاً ومأوى لاطفالهم ومعقلاً لاعراضهم ! وبينما كان الفقراء في القرى الجبلية يتجمعون منادين مسترحمين من خزنوا الدقيق بمئات القناطير دون ان يحصلوا على شيء ، كانت المضايف مفتوحة لالوف الجبليين المسيحيين في المناطق الدرزية ، والاسلامية البعيدة . ولكن ضربات هذا الشتاء لم تنته عند هذا الحد ، فبينما كان من بقي من الجبليين يتدينون او يشترون بذاراً لارضهم بثمن ما يبيعونه من مصاغ نسائهم او اثاث بيوتهم صدرت اوامر « الدولة العلية » بمصادرة البقر والبغال لخدمة الجيش ، فاضطروا ان يزرعوا نكشاً بالمعول ، وتجردت العائلة كلها من صغيرها الى كبيرها ، وكان ذلك ضربة قاضية على ارض بونا الياس واشقائه . فمن عشرة رؤوس من البقر لم يبقوا لهم الا خمسة من العجول الصغيرة ، لا تصلح للزرع ولا تدر الحليب .

اتخذ النزوح والتشرد اذ ذاك طوراً جديداً اشد من الماضي واقسى ، وراح بعض من صودرت ابقارهم وبغالهم يفتشون عن اهلهم المشردين ومنهم من مات في الطريق برداً او قتلا من اللصوص . ومنهم من بقي تائهاً لا يعلم اين اهله ، ومنهم من استدل الى اجزائه الضائعة فلقي الحياة في المناطق المضيافة وتخلص من الموت والخنوع المخيمين على الجبل .

جبل بني معروف بعد مئة الف ، يبقى شامخ الرأس ، عزيزاً مهاباً ، يحمي اهله واغلاله وكل من أمه من المواطنين اللبنانيين ، بمضاء سيفه وشجاعة ابنائه ، وجبل لبنان اربعمائة الف يخر ساجداً امام اعدائه ، يفتكون به فتكاً ويميتونه عرياً وشنقاً وتجويعاً .

موسم الزرع امسى في ايامه الاخيرة ، واحفاد الخوري الياس احسوا بوطأة الشتاء الثقيلة ، وبالضيق يدخل شبحه ، لاول مرة ، الى بيوتهم . هاهم في نصف الشتاء ولم يبق عندهم سوى ارطال قليلة من الزيت يمكن بيعها ، وسوى « عجلتين » صغيرتين من نسل البقرات الاصيلة التي صادرتها الدولة ، لا يجوز بيعها مهما كلف الامر ، اولا لصغرها فثمنها لا يحرز ، وثانياً لاستهلاك ما عندهم من الحشيش والزنزلخت والنشارين ، وثالثاً لاستبقاء نسل بقرات حلوب ، عزيزة على قلب العائلة كانها جزء منها !

بيوت ثلاثة خاوية من المؤن ، الا بقايا ما يتمونون من ارزاقهم : قليل من الزيت والزيتون والتين الناشف والزبيب والكشك لا يشبع عائلة واحدة ايام الشتاء . ولكن اشقاء بونا الياس ارادوا ان يتضامنوا ويأكلوا كلهم في بيت واحد ، عند بو جريس ، لعل في ذلك بركة في المؤن ، ونقص في المصاريف فجمعوا كل ما عندهم من بقايا المؤن عند ام جريس وبدأوا بتقنين معاشهم .

لم يكن من شغل في المنطقة كلها الا في قطع الحطب ونقله الى بيروت لحساب الدولة .

ولكن بوسعيد خسر بغله ولم يبق عنده الا الحمار ، فراح مع ابنه سعيد يقلعون « القرامي » ويفردون بعض اشجار من احراش الصنوبر والسنديان دون ان يعلم القسيس وبوجريس . ولم يكونا يربحان ، هما الاثنان ، ما يشبع اكثر من شخصيهما فقط . ومن يطعم ام سعيد وشقيقة سعيد ، وشقيقه الصغير ؟

وبو جريس فقد ايضاً فدانه . وزهد النير والصمد والمساس وكل ادوات الفلاحة ، فتراها مرمية في القبو ، لا احد يسأل عنها بعد عزها التالد .

ولكن هناك ما هو اهم من ادوات الفلاحة : ماذا يشتغل بوجريس الان . هو رجل لم يتعاط الا الفلاحة من اول عمره ، لا يفهم الا لغة الارض وحالتها بالنسبة للعدان الملائم لحرثها والضيعة كلها تستشيره في ذلك . فاذا قال : « الارض بتطلع اليوم » حرث الجميع ولو كانت الارض صلبة كالحجر . واذا قالوا : « الارض وحل » احجم الجميع عن الفلاحة . وهو يقدر ان يعين لكل شخص من الضيعة اين يجب ان يفلح ، اذ هو دارس كل شبر من اراضي القرية كلها . اما الآن فهو ضائع ، لا

يعلم ماذا يفعل . ارزاقه كلها ما تزال بدون « كوننه » لم يتمكن من شق الارض بعد لتقدر ان تخزن مونة الصيف . والارض البور لا تقدر ان تخزن ، بل تتبخر اكثر المياه قبل ان تنزل الى جوفها .

يدور بوجريس في كرومه المنتظرة « سكّته » وينظر اليها نظرة الاب الى ابناء جائعين لا يملك قوتهم ، وعراة يعجز عن كسوتهم . هو ينتقل كالمجنون من مكان الى مكان ، لا يعلم كيف يتدبر . ولم يكن بونا الياس اقل هماً من شقيقه بوجريس . بل كان يحمل هموم البيوت الثلاثة بما فيها من ابناء وارزاق على رأسه . هو يرى العائلة تضعف من يوم الى يوم ، هو يرى شبح الضيق يدخل بيتاً لم يعرف العوز منذ اجيال ، هو لم يزرع بعد ولم يبق من وقت الزراعة الا ايام معدودة . وقد لاحظ منذ الان ان شغل شقيقيه بوسعيد وبوموسى مع اولادهما لا يكفي نصف العائلة .

هموم وهواجس تتناهب راحة هذا الراهب القديس وقد امام فكره افاقاً قاتمة لا تجلو بساطته شيئاً من معانيها واسرارها .

قبل ان ينتهي وقت الزرع عاد جريس ذات مساء الى البيت وقد اجتمعت العائلة على العشاء :

— رأيت عمي بوطنوس في الطريق ، فقال انه مستعد ان يعطينا فدانه لنزرع اراضينا اذا اردنا . ويجب ان نجاوبه هذا المساء ، لان غيرنا من اقاربه يريد الفدان اذا كنا لا نريده . وقد افهمني انه لا يطلب اجرة منا .

فساد الصمت على الجميع ، كانهم فوجئوا بسؤال كانوا ظنوه قد تلاشى بمصادرة كل الابقار العاملة . ولكن بوطنوس لم يكن لينسى هذه العائلة العديدة التي تمتّ اليه بنسب قريب ، وهو يعلم شدة تعلقها بالارض والاشجار وحرصها على كل غرسة كانها ولد نازل عن قلبها . لذلك قدر وهو فطن وقوي الملاحظة ، ان اقاربه سيحتجون بعدم وجود فدان للفلاحة فيهملون الزرع وتمسي حالتهم تعسة ، فشاء ان يعمل واجبه الاخير نحوهم وهو تقديم فدانه لهم مجاناً ليزرعوا اراضيهم .

— ما رأيك يا عمي ، قال جريس لبونا الياس ، ان نزرع عواد التوت ونحافظ على « النقبات » لانها ما تزال في اول طلعتها ، والزيتون الكبير لا اظن القمح ينجح فيه ، لان الظل الدائم يمنع الزرع عن النمو . اما التوت ، كما يقول عمنا بوطنوس ، لا اظنه يتأثر من زرع سنة واحدة . والسنة القادمة الله يدبرها .

فهز بو جريس رأسه هزات بطيئة وتنهد متحسراً وقال :

« اتعلم ، يا جريس ، ماذا تمثل هذه التوتات الكبيرة ! انها تخصيب جدك بركات ، ابي جدك الخوري الياس ، وهو الذي طعّمها واحدة واحدة ، وهي آثار حبه لنا وتعبه علينا وبركته الاخيرة في بيتنا وارزاقنا ، انت بفعلك هذا كانك تأخذ رسمه وتمزقه بيديك ! واين الرسم الجامد من هذه التوتات التي تحمل روحه كلها حية ، ناطقة : تنطق بجنانه وعطفه وكده من اجل ابنائه واحفاده ! انا لا اعلم شيئاً ! انا ليس لي رأي ! افعلوا ما تشاؤون ! فقط لا تدعوني ارى بعيني . قرروا كل شيء في غيابي » .

ونهض مسرعاً الى الحارة المجاورة ، بعد ان قال « تصبحون على خير » . فناداه القسيس ليرجع فلم يرد ان يسمع بل كان يتمتم وهو ذاهب :

— « عين لا تقشع قلب لا يوجع » اسمعوا لبوطنوس وخربوا بسنة او سنتين عذاب خمسين سنة ! بو طنوس يعرف قيمة الرزق ؟ ! اي متى حمل منجلاً في يده ؟ من ثلاثين سنة ونحن نبق الدم كل يوم ! أيربي الانسان ولده ثم يذبحه بيده ؟ والله لا اعلم ! ! »

— لو كنت علمت ان ابي يتأثر هكذا لما كنت تكلمت ، قال جريس .

— طبعاً يتأثر ، قال القسيس بحزن وكآبة .

« ان هذا الرجل ، يا ابني ، لم يعرف الا البقرات وادوات الفلاحة وهذه الارزاق منذ هو يفوق على نفسه هذه الاشياء . قد اختلطت بحياته اليومية واكتسبت قسما كبيراً من عواطفه ، تقاسمكم قلبه وحبه وحنانه . هي مملكته ، وهو يراها تسقط الآن . الولد يا ابني تربيه ثلاث او اربع سنوات ، ثم يبدأ هو بخدمتك ومساعدتك ، اما هذه الشجرة فهي تفرض الالتصاق بها دائماً وابداً ، لذلك هي

تسلبك عطفك بدون ان تحس . خصوصا وكل فلاح يا جريس له قطعة يفضلها ! اني اشتاق الى البستان كما اشتاق اليكم اوانت ضربت له على الوتر الحساس! ابوك يحب التوت اكثر من كل شيء وجئت انت تقترح زرع التوت . تصور انك تقترح علي زرع البستان ، افضل الموت على زرع البستان . لا تزعل يا ابني اذا قلت لك اني احب بستاني بقدر ما احبك انت واخوتك ! »

— هذا صحيح يا عمي ، ولكن ما العمل ! اننا في خطر الجوع ، نحن عيلة كبيرة ، نحن خمسة عشر نفساً ، وقد بدأنا نحس بالحاجة ونحن في اوائل الشتاء ، فما تكون حالنا اذا كان موسم الحرير كالسنة الماضية واسوأ ؟ ! ما تكون حالنا في الشتاء المقبل ؟ انتزح كغيرنا الى السهل ؟ »

هذه فكرتي ، قال بو سعيد ، انا ذاهب آخر هذا الاسبوع مع سعيد ، واذا وجدنا شغلا هناك سنعود ونأخذ ام سعيد ونديم ونجلا .

— يصعب علي ان نتفرّق يا بو سعيد ، ولكن لا بأس اذا جربت هذه الرحلة انت وسعيد اولا ، قال القسيس منغماً .

— ونحن هنا يا عمي ، انا وابي وبوموسى نشتغل البعض في سياسة املاكنا والآخرون في قطع الحطب بالاجرة وفي تقليع القرامي ، وفي تفريد احراشنا . خل ابي يعتني بالارزاق مع عمي بو موسى وانا واولاد عمي ندبر الاشغال الاخرى . ولنفكر مع ذلك بمسألة الزرع سريعا قبل ان يفوت الاوان .

واستعرض القسيس كل العواد والكروم ، فمرت في مخيلته كما تمر في نفس المتطوف المتعبد صور الجنة الخالدة . واعاد استعراضها مرة بعد مرة ، يريد ان يصدر حكم الزرع على قطعة منها فعانقها قلبه متساوية ، كما يتساوى الاطفال في قلب امهم .

— « سأفكر بالامر في هذا الليل يا جريس ، وارى ما يلهمني الله ، قال القسيس بتلبك ، اغدوا انتم الى شغلكم واتركوا هذه المسألة لي ولابيك . »

— « هذا احسن رأي ، قال بوموسى ، فلنسرب نحن يا بوسعيد ، ما صبح الا فتح ! تصبحون على خير ! »

وانصرف الجميع الى النوم . لم يبق الا بونا الياس وحده ، مطرقاً متأملاً .

— « الناس يتفلكون كثيراً ، ويخافون ان يموتوا من الجوع ، قال بونا الياس في نفسه ، فينسون كل ماضيهم ويندفعون مع القال والقيل عوضاً عن ان يتكلوا على الله ويتابعوا اعمالهم . هل يمكن ان ينقطع القمح ؟ وان يموت موسم الحرير ؟ وهل يمكن ان تترك الدولة الناس يموتون ؟ واذا نسيتنا الدولة أينسانا سيدنا البطرك؟ لو كانت المجاعة ممكنة لكان صدر منشور الى الرعايا . أتحكم على ارزاقنا بالموت لان ابن عمنا بو طنوس يرى ذلك ؟ ان بوطنوس لا يشفق على الرزق ، لانه لم يتعب عليه ! هو كالمرأة التي جاءت تحتكم الى سليمان لتقاسم الام طفلها وفلذة كبدها ! . . من يدري ان الحرب لا تنتهي هذا الشتاء ؟ . . . هـل الموت نعس ؟ نحن عشرة رجال ، كلنا شغّيلة ! أيمكن ان نموت جوعاً من اول سنة ضيق ؟ . . . »

وغفا القسيس مكانه ، على الديوان الواطي ، في حارة السهرة ، ملتفاً بلا وعي بعباءته وبغطاء من الصوف الحمصي ، كان مرمياً الى جانبه .

XV

الشتاء بطيء ، بليد ، قاس! يحس به الناس كافعى ملتفة على اجسامهم ، منتظرة تقطع انفاسهم ! الهول مخيم في كل بيت ، والجوع منشب انيابا لا تنثني آلامها دقيقة واحدة ، والزمان يتباطأ ويتوأد كانـه متآمر مع الاحداث الظالمة على الفتك والافناء ! تتأنى الشمس قبل ان تستسلم الى البحر كانها تجافيه بعد وصال الدهور السحيقة ، ويتمهل بزوغ الفجر كأن العتمة تطيع الظالمين ، وتشير بالتمهل !

والجوع وبأ جائع يدور على الضحايا وينساب كالافعى الى الفرائس . يتغلغل في انوار الصباح فيغشى الطبيعة والبشر ، ويندس في سدل الظلام فيحمـل الموت ليلاً الى البيوت والكهوف !

وجحافل الموت تطوف نهاراً وتفتك بالعـزل الضعفـاء ، وتعوس ليلاً فتزود

البيوت الفقيرة حيث الامهات والاطفال ينتظرون قوتا ! هذه عذراء ريفية ، هربت من بيتها كانها تهرب من الموت . وصلت الى الطريق العامة متلاشية القوى . فارقت الى جانب الطريق ، تستعيد قواها من الشمس . والشمس اشرقت على وجهها الشاحب كانها تريد ان تجلو في ذلك المحيا خطوط الجمال المتلاشية بسرعة كما تتلاشى انوار الشمس على افق الغروب ! ولا تمضي دقائق معدودة حتى تنتفض العذراء تريد الهرب ! احست بشبح الموت يفاجئها غدراً ! تريد التستر في بيتها خوف ان تعبث الرياح بثوبها بعد ان تقف انفاسها ، تريد ان تحافظ على نفسها حتى بعد الممات ، ولكنها لاتقف مترنحة على قدميها حتى تهوي في القناة الضيقة ، رأسها يتحرك في الاوحال ورجلاها تنتفضان على الطريق ، تلفظ انفاسها الاخيرة والهواء يرفع ثوبها عن فخذيها العاريين !

واخذت الشمس خماراً من الغيوم تحجب به انظارها عن مظالم البشر ، وتغمر الارض هنيهة بشبه دغشة حزينة ، حداداً على عذراء الريف ، تلك التي لم تسلم جسدها للاقدار الا عندما سلّمت نفسها للازل . ثم بدأت تهطل السماء نقطاً متفرقة ، بطيئة كانها دموع المجهول تبلل جسداً بارداً لم تدمع عليه عين بشر .

في كل يوم فاجعة في مرياع ، وقد تعوّد الناس الفواجع وتقسّت قلوبهم عليها حتى كادوا لا يحسون بآلامها .

والتنين يطلب كل يوم ضحايا ، ودور تقديم القرابين ، على مذبح الموت العابق ابداً ببخور الاجسام المتفتة ، يصل الى كل بيت . فائدة الفناء لا ينقطع عنها أكلة الانفس النهمون .

نهار امس حدثت فاجعة سلمى المروّعة ! :

في احد بيوت القرية المنفردة الى جهة البحر ، تمثلت البارحة على مسرح القرية ، وعلى مشهد من بونا الياس المسكين ، افظع وارعب رواية يمكن ان تراها عين بشر في هذه الحرب الفتاكة . بينما كان بونا الياس ذاهباً الى الحرش ليقطع بعض اغصان السنديان للعنزة سمع بكاء طفل في بيت قريب من الطريق . ولما صار قبالة البيت تماماً احس ان هناك صراخ طفل متألم متوجع لا يقف ولا يهادن ، بل يشتد

ويمسي مزعجاً مؤلماً صرخة بعد صرخة . تقدم القسيس بعض فشخات ليتابع طريقه ، ولكن الصراخ صار عويلا يمزق القلب ، ويفتت الكبد . وقف البونا من جديد ، يصغي بقلق وخوف فشعر ان في عويل الطفل استغاثة خرساء متألمة ، واسرع الخطى نحو البيت . ولكن الباب مغلق ادق دقات سريعة وانتظر برهة فلم يفتح له احد . اعاد الدق بقوة وسرعة وانتظر ولكن عبثاً . تطلع الى كل الجهات فلم يجد له جاراً ولا مـاراً معيناً ! جرب ان يخلع الباب فلم تمكنه قواه الخائرة ! صاح فلم يسمع احد صوته . ولكن الطفـل المنتحب وقف عن نحيبه ليصغي ، ثم عاد يضاعف بكاءه وعويله كانه في خطر الموت ولا يقوى على الكلام والاستغاثة الصريحة !

دار بونا الياس حول البيت مفتشاً عن وسيلة توصله الى الطفل ليرى سر انتحابه فلم يجد شيئاً . ولكنه رأى شجرة قرب الحائط ، توصله الى نافذة لم يحكم غلقها جيداً ، فاستجمع القسيس كل ما تبقى في جسمه مـن قوة ، لان صراخ الطفل لم يسمح له بالتريث ، اذ لم يعد العويل يضرب في اذنيه بل يخزه بابر في قلبه . تسلق الشجرة مستعيناً بالحائط ودخل البيت من النـافذة ، فلم ير اولا بوضوح لان نور الشمس لم يكن داخلا الا من شقوق الابواب والنوافذ الصغيرة ، ولكنه تقدم من الطفل بسرعة ويا لهول المشهد ! امّ مسطحة في كومة من القش والقطن ، عليها اطمار بالية ، عارية الصدر والساقين ، لم يبق من جسدها الا عظام نحيلة وجلد أربد قاتم ، ولم يبق من محياها الاّ عينان مغمضتان ، تغرقان في الحدقتين الى القعر ، ولم يبق من صدرها وثدييها الا جلدتان رخوتان لولا الغريزة لما استدل الطفل انهما ثديا امه . اما الطفل فيقبض على الثديين بكلتا يديه ، فيمص من الواحد مصات سريعة كانها نهش مخيف ، ثم يتركه ويغمغم غمغمة أليمة موجعـة ، ويقبض على الثدي الاخر بكلتا يديه ولا يلبث ان يرفع فمه ويعود الى الغمغمة . امـا الام فصقيع الموت يهيمن على مناطق جسدها منذ ساعات عديدة والطفل لا يجد في الثدي الا طعم الموت البارد القاسي !

يا المشهد المخيف بـألمه ، الممزق اوصال القلب برعبه ! انقضّ بونا الياس ينتزع

الطفل عن مائدة الموت المخيفة ويهرب به الى بيت فيه ناس احياء يغذونه ولو اياماً قليلة لينسى طعم الموت الذي عانقه على صدر امه . وبعد ان سلم الطفل الى اقرب بيت فيه احياء ، اسرع الى بيته واخذ شحيمته وعاد الى بيت الام الميتة فسجد امام كومة القش والقطن وصلى صلاته ، ثم فتش عن شخص يستعين به ليواري الجثة التراب فلم يجد الا ام طنوس .

حاول الاثنان ان يحفرا حفرة يستران فيها جسد المرأة الشبه عار فخانتهما القوى ، لذلك عاد بونا الياس فأحكم غلق الباب كما كان ونزل من حيث صعد !

وقد جاء اليوم دور احفاد الخوري الياس ليساهموا في ولائم الموت الدائمة !

هناك ، هناك ، على المطل كان في هذا الليل مأتم لمير البشر في ازمانهم مثيلا لمشهده .

هناك تحت الخروبة الكبيرة ، قرب الغروب ، تحت امطار تهطل حيناً وتنقطع حيناً آخر ، وفي اعصار يجن مرة ويهدأ آناً ، بين قطيع من الاشجار المرتعشة والمولولة مع الرياح ، سقط رجل مغمياً عليه ، يصارع الضعف بقوى النفس الجبلية الصلبة ، ويغالب الموت بحبه للحياة ، ويقبض على البقاء ببقايا العزم المبعثرة في ارجاء جسده . ذاك الرجل هو بو موسى ، شقيق بونا الياس !

منذ الصباح كان يعمل في الكروم وحده ، ينكش بمعوله الثقيل حول الاشجار لتتشرب ما يرويها في الصيف ، وهو يقوم بهذا الشغل الطويل المتعب لان الدولة صادرت الابقار كلها ، فتعسرت الفلاحة وصارت الكروم في خطر العطش ايام الصيف .

جاء في الصباح يحمل في فوطته الكبيرة رغيفاً من الشعير الاسود ، فيها قليل من الهندبة المقلاة بالزيت ، فأكلها عند الساعة العاشرة وبقي يشتغل طيلة النهار مقاوماً الجوع بصلابة يديه ، ونشاط ارادته ، وتصميمه على نكش عدد معين من الاشجار . وقد كان سائراً في عمله بقوة اللاوعي والاستمرار ، فجالد الى الغروب ولكنه احس اخيراً بالتعب يثقل ساعديه ، وبالضعف يدب في ركبتيه ، فجلس تحت الخروبة يستعيد نشاطه . وكأن قواه بلغت حدود عزمها وزخمها ، فما ارتمى على الارض حتى بدأ وعيه يتلاشى . همّ بالوقوف ليسير نحو السقيفة فيشرب ، ولكن

خانته ركبتاه فانطرح على الارض جامعاً ركبتيه ويديه الى بطنه ، شلواً عديم الحراك ، لايعلم الناظر اليه ميتاً كان ام حياً !

سقط الفلاح المتهالك على الارض ، يسفح على صدرها آخر انفاسه ، مع سقوط العتمة ، فأخذ المساء البارد يحوك حوله كفنا من الظلام المصقع . وجاءت عاصفة المساء ، تلك التي تسبق ليالي الشتاء الممطرة ، الباردة ، العاصفة ؛ فاجتاحت الاشجار اعاصير جامحة تصفر وتعول وتولول كانها جنٌ من الثكالى تمن يندبن في ذاك الليل البهيم .

وفي البيت كانت بقايا العيلة في انتظاره حول موقدة لم يبق من ايام الخير سالماً غيرها . جلس القسيس صامتاً ، متأملاً في النار العامرة ، والى جانبه بوجريس يتكيء الى مسند عتيق يهوم مستسلماً للنعاس كانه يخاف اليقظة ويرتاح الى الذهول . مريم وحنة مشغولتان بخبز اقة من طحين الشعير الاسود . فقد جبلتا الطحين كما تُجبل النخالة للدجاج ، وقرصتاه كما كانت تقرص الكبة ، رزق الله على ايامها البيض ، وهما تخبزانه على تنكة صغيرة رُكِبت فوق النار كما كان يُركَّب المصبَّغ لشوي الكبة !

وام جريس تحرك قدراً ، فيها كمشة من العدس وكثير من الماء والزيت ، والملح هو ماء مسروق من البحر !

صمت كانه صمت القبور . شاشة سينمائية خرساء ، تمر عليها حركات بطيئة ، كسولة !

واين بقية العيلة ؟ لا احد يعلم ! منذ شهر اخذ بوسعيد امرأته واولاده وذهب الى السهول . حمّل ما خف من رحاله على حماره الصغير وتوجه شطر زحلة . وبعد اسبوعين لحق به موسى وبطرس ولدا اخيه والى الآن لم يسمع عن الجميع خبر . اما جريس وحنا فلم يعودا بعد من قطع الحطب على حساب الدولة .

— حنة ! خذي صحناً من الشوربا وهذه الرغيف الى امرأة عمك ام موسى ، وتفقديها ، قالت ام جريس ، ثم التفتت الى بوجريس وقالت : « يا بوجريس اخوك تعوّق كثيراً في الكرم ! عتمت ! والمطر نازل بشدة ! ومن عادته انه لا يتأخر ، خصوصاً وام موسى ساخنه ! ... ياولدي ! اين يكون الآن جريس وحنا بهذا البرد ؟ ! ... انده بوحنا واسأله اذا كان اخوك لاطياً عنده ، والا يكون باقياً في

المطل ! هو على رغيف شعير اسود من الصبح ! »

غاب بو جريس هنيهة وعاد يقول ان بوحنا لم ير اخاه ابداً . فانتبه القسيس مذعوراً وقال : لم يره ؟ ! يا الله ! ماذا اصابه اذاً ! لا يمكن ان يكون الا عنده او في الكرم ! زيتي الفانوس حالا يا مريم ! »

وبينما هم في حيرة وذعر دخل جريس وحنا مرتخين حاملين كلٌّ فأسه على كتفه وجراية من الخبز تحت ثيابه .

— عمك بوموسى لم يرجع بعد من الكرم ، ياجريس ، حالا ، يا ابني اذهب مع اخيك حنا الى « المطل » ! خذ معك جراية وابريقاً ! من يعلم ربما هو نائم هناك ، مقصّر من الجوع !

— « خذ الفانوس وامش قدامي ياحنا » وبدون ان يزيد كلمة ، اخذ الابريق من يد امه وعصاه من وراء الباب ومشى ! ولما صار خارج البيت نادى جاره سمعان الذي كان وصل معه في تلك البرهة من قطع الحطب وقال له : « تعال حالا ! البس عباتك وخذ عصاتك ايضاً . »

لم يكن جريس قد فقد كثيراً من عزمه بعد . بل كان يغذي قوته المشهورة في القرية والجوار من متانة جسمه ، وعزم عضلاته ، وغض شبابه . فقد كان احياناً يشتغل النهار كله بقطع الحطب ، على رغيف من الشعير ، ليبقي الجراية لامه وشقيقتيه . وامه كانت تأبى ان تذوق ذلك الخبز بل تبقيه لشقيقتيه ولاخيه حنا .

وصل الشباب الثلاثة الى المطل فتوجهوا تواً الى السقيفة وتوجس جريس شراً عندما رأى الباب مفتوحاً .

— اين كان يشتغل ؟ ! ماذا حل به ؟ ! كان ينكش تحت ، في اول الكرم . بدون شك ! الحقني ! امشي قدامي يا حنا ! اسرع ما زالت صاحية قليلاً !

وهرول الثلاثة نزولا الى الكرم . وما اطلوا على الجبل الاخير وضرب نور الفانوس حيث تهيمن دوحة الخروب العظيمة ، حتى صاح حنا : « هنا ! هنا ! يا جريس ! عمي واقع تحت الخروبة ! اسرع ! »

وما هي ثانية حتى كان الثلاثة جاثين على ركبة ونصف ، يهزون الجسم بعنف

وذعر ، وجريس يرفع الرأس على ذراعه ويصيح : « عمي ! عمي ! » ولكن عمه جثة هامدة .

— انهض قبالي ياسمعان لنحمله الى السقيفة ! لا شك انه وقع من الخروبة !»

وضعوه في السقيفة على طراحة عتيقة وغطوه بقطعة من بلاس ثم نزعوا عباءاتهم وزادوا غطاءه .

— شعل النار يا حنا ، روّح ! قال جريس وهو يفرك يدي عمه . « وانت ياسمعان انزع مداسه وافرك رجليه حالا . لا يزال فيه روح ! ... عجل بالنار ياحنا والاّ راح من ايدينا . لحقناه على آخر رمق ! نبضه يدق ! لا تخافوا ! »

لم تمض دقائق قليلة حتى كانت النيران تحمي السقيفة فيتبدد البرد المجرم، ولكن حرارة الحياة لا تزال ضئيلة في الجسم المسطح بدون حراك .

— الا تشعر ان الحرارة تدب في جسمه ، ياسمعان ، قال جريس وهو يتابع فرك اليدين كما يتابع رفيقه فرك الرجلين

— بلى ، ولكن قليلاً ! اغل ماء في هذه التنكة يا حنا ، لنسقه ماء ساخناً .

— اليس الاوفق أن نحمله الى البيت ؟ . قال حنا .

— ماذا تقول ؟ لا يمكن ان يتحرك من هنا ابداً ! حتى الآن لا نعلم اذا كان ميتاً ام حياً ! ضوّ هذا السراج الصغير وخذ الفانوس وارجع الى البيت اعطهم علماً ! قل لهم انه حي ولكن فهم عمي القسيس على حدة ليأتي بشحيمته وهات لنا معك قليلاً من النبيذ ، ولكن ليأتِ عمي قبل الجميع ، اركض !

مضت ساعة والنار في الكهف تلحق السقف ، وقد تعب الرجلان من الفرك ولم يعد بو موسى الى رشده ، ولم يشعرا ان الحركة تعود الى اعضائه . شيء من الحرارة فقط يتسرب الى جسمه ، ولكن لا وعي ولا حراك !

« لنسترح قليلاً ياسمعان ، والنار الآن تكفي لتعيد اليه الحرارة ... خذ يده وقل لي الا تحس بنبضه يدق ؟ »

— بلى ! بلى ! لا تخف ، فيه حياة !

وعادت عاصفة الليل الى الهبوب . فالدنيا لم ترتو بعد من همر وتدفق ، وجنون الرياح الغضوبة لم يأخذ حده . ولم تكن فترة السكون التي جاءت بعد المساء الا هنيهة صمت على شهيد الارض المجندل في حضن الطبيعة ! ولو ادركت الطبيعة ان الدفء يحييه ، وان الشمس تطيل ارماقه ، لتمردت على نواميسها واسدلت على الجسم الواهي غشاء من حرارة الصيف ! لو علمت الطبيعة بعض ما الم بابنها المنكب على اديمها ، لأمرت الشتاء ان يتوارى كلمح البصر ، ولتمخضت بالصيف قبل اوانه لتنعش بثماره اليانعة جسد ابنها البار الساقط جوعاً في حضنها .

لو فهمت الاشجار ما حدث بين ظهرانيها ، وعلمت ان احد آبائها فقد حسه ودخل في عالم الذهول مثلها ، لثارت على مملكتها الذاهلة وطلبت اليقظة والحركة لتنقذ من اعطاها ذاتها : فغلغل اصولها في اعماق امها واطلق اغصانها لتتلاثم انوار الشمس ومتعها بفضيلة الكرم والسخاء ! ولو ادركت الارض ان من ارتمى على صدرها لم يكن مستريحاً ، مجدداً قواه ، لو احست انه يتلاشى في حبها وخدمتها ، لفتشت في احشائها العميقة عن حمم لهّابة محرقة وقذفت بها وجوه الظالمين في العالم !

ولكن انّى للطبيعة ان تعي وتفهم ! هي تهب وتغدق ، انما هي لم تعط سلطانا على الاشرار والاشقياء !

شهيد الارض ساج على سرير الكهف الترابي الوادع ! تسجّيه الاطمار الحقيرة ، ولا تقدم له امه الارض الا عيدانها اليابسة ، ناراً مدفئة تحاول تشجيع بقايا الارماق الخائرة في جسده !

الطبيعة بكل عناصرها احست بالجريمة الفظيعة تمثل في ارجائها ! لذلك اطلقت عناصر ثورتها وغضبها من جديد . وثبت من الابعاد ارياح كانها مسلحة بالبراثن ، فاخذتها الاشجار تنتف بها اوراقها وغصونها كانها امهات وحشية في مأتم ابنائها وترددت اصداء الرعود كانها تهديد الوجود لاجرائه المجرمة ، او قهقهات الابالسة لانتصار البطل على الحق . وانقضّت الامطار جيوشاً جرارة لا تنقطع ، تريد ان تجرف كل شيء الى العدم ، كأن القوة العليا لم تر آلم واحزن من مشهد هذا التقي الناسك ، يقف حياته لجمال الارض وازدهارها وسخائها ، فيقتله الناس برغيف

من الشعير الاسود اليابس . تهب يداه الزيت والدبس والخمر ، فيقدم له البشر مقابض وحشية تقطع انفاسه وترديه قتيلا على صدر امه !

وصل حنا وخبر اهل البيت بما حدث لعمه . وأدب الصوت على الجيران والاقارب بل دق الجرس دقات حزن لتنهض القرية كلها . ولم تمض نصف ساعة حتى علم القرويون كلهم ان بو موسى سقط من الخروبة وانه باق في « المطل » بين ميت وحي .

ولكن من يطلع برّ بيته في هذه الليلة المخيفة ؟ والناس انصاف اموات او اشباه احياء ، يتسكعون داخل بيوتهم وينطرحون وهم قابعون في زواياهم ، يحذفون في مشيهم حذفا في رابعة النهار فكيف يخرجون من بيوتهم في هذا الليل الهائل . وبعد ساعة من ذيوع الخبر لم يجتمع في بيت احفاد الخوري الياس الا بو طنوس وابنه طنوس ومختار القرية ، وبعض انفار آخرين لا تجرهم ارجلهم الى « المطل » في ليلة كهذه .

اما بونا الياس فهو في الطريق ، يلتف بجبته العتيقة ، ويحمل شحيمته في جيبه وفي الاخرى قنينة صغيرة من النبيذ ، يتلمّس طريقه ويستدل عليه بالغريزة والاستمرار ، ويحاكي نفسه كمجنون تائه في البراري :

— بوموسي ! كيف تركناك وحدك كل هذا النهار ! كيف اهملناك هذا الاهمال ! .. ياحبيبي ماذا جرى لك ؟ . . . ماذا طلعت تعمل في الخروبة ؟ والايام ليست ايام خروب ! .. ام ان قواك خارت ولم تحملك رجلاك الى البيت ؟ . . . . يارب نجنا من هذه الليلة ، يا رب لا تشمت الناس بنا ! وكان كأنه معصوب العينين ، لا يعلم اين وصل تماماً ، ولكنه يقدر انه يسير بين اشجار الكرم الذي قطع رجليه على دربه . وهو يجس حيطي الطريق حيناً ويعثر حيناً آخر فيمسح الوحل عن يديه بجبته ، والامطار تسقط بشدة واستمرار كأنها الميازيب الجارية ، والعتمة تتكاثف في طريق ترافقها الاشجار من الجانبين وتغطيها الاغصان الممتدة فوقها من الناحيتين .

« امرأته راسية في فراشها ! . . . ولداه ! من يعلم اين هما الان ! . . . يا الله ما هذه المصيبة ؟ يا الله دبر امرنا ! . . . »

واطل بونا الياس من حرش البرز على ضوء سقيفة « المطل » فرأى النار

مشتعلة ولم يرَ حركة كثيرة فاطمأن نوعاً وقدر ان الناس يستدفئون . وبينما هو مهرول يتمسك بصغار الاشجار ليتقي الوقوع ، دون ان ينجو من الشوك يهشم ويدمي ساقيه ، اذا بفانوس حنا يضيء عليه ويقترب منه ، واذا بصوت بو طنوس يرن باذن القسيس ويسمع طنوس يقول لابيه :

— طوّل بالك قليلاً لنرى ما حدث . وبعدئذ تلوم قدر ماتريد !

وما زال الضوء يتدنى حتى لمح طنوس عمه القسيس فصاح مسرعاً نحوه :

— انت ما زلت هنا يا عمي المسكين ! لماذا سبقتنا ! انت تحمل ليالي مثل هذه؟ ثم اخذ إبطه وماشاه ليقي عثراته وليسرعوا في مسيرهم .

اما بو طنوس فكان يتمتم بصوت خافت :

سيموتون كلهم على هذه الطريق الملعونة ؟ الناس همهم حياتهم ، وهؤلاء لا يهتمون الا بوصية الخوري الياس ! وهذه الوصية ستقضي عليهم !

وصل الوفد الى معبد الارض ، الى السقيفة الآوية كاهن الاشجار وادوات عبادته ، عند منتصف الليل . فاشار جريس على القادمين الا يزعجوا النائم بلمس جسده او بالكلام .

« هو يتحرك قليلاً ولكنه لا يتكلم ولا يعي ما يقال على مسمعه . دعوه مرتاحاً الان ! لقد اتعبناه بفرك يديه ورجليه نحو ساعتين حتى عادت اليه الحياة ! لا اظنه واقعاً من الخروبة ، بل قد حدث له عارض اثناء الشغل واغمي عليه ! »

جلس بوطنوس قرب النار يتدفأ ، وعيناه لا تفارق بوموسى الراقد رقدة الموت . لم يقل شيئاً ولكنه كان يهز برأسه متألماً ، ويتنهد آناً بعد آن تنهيدات طويلة تقول كثيراً لمن يفهم معانيها ، والقسيس كان يفهم انها مليئة باللوم والعتب والتأنيب . اما الراهب القديس فقد سحب شحيمته من جيبه ، ثم اخذ قنينة النبيذ من الجيب الآخر ووضعها في طاقة صغيرة . فتقدم جريس اذ ذاك واسرّ الى عمه بصوت متقطع خافت : « امشحه حالا ، لا اظن ان الصباح يطلع عليه ! » فركع القسيس حالا وتظاهر انه يتلو صلاة ، ولكنه في الحقيقة كان يقول المشحة الاخيرة فوق رأسه .

مضت نحو نصف ساعة وكاهن الله والارض راكع ، يقدم ، في معبد الارض ،

في مملكة النبات ،بعيداً عن الناس ، تلك النفس الطاهرة للقوة التي وضعتها بين اديم الارض وانوار الشمس، ولم تنصفها من الانسان الظالم . ولم ينته القسيس من صلاته حتى ارتعش النائم ارتعاشة خفيفة وأخذ جسده يصقع صقيع الاموات !

XVI

لم يمض على موت بوموسى اسبوع واحد حتى ماتت ام موسى ايضاً . انها لم تتحمل، وهي الخائرة القوى ، عبء الضربة القاضية : يموت زوجها هذه الميتة المحزنة وولداها مشردان لا تعلم اين ، وهي واقعة في فراشها ، تمشي ببطء الى الموت ! ان الضربة اجهزت على بقية حياتها !

والقسيس المسكين امسى كالمجنون لا يعلم ما يفعل . العيلة تتلاشى وتتبعثر وهو لا يجد طريقاً للخلاص . الجوع يضعفهم والهم يثقل كواهلهم والطريق طويلة مظلمة !

مر ثلاثة اسابيع على وفاة ام موسى ، ولم يعد احد من افراد العيلة المتشردين في السهول ، ولم يزل القسيس واخوه بوجريس ضائعي الافكار من الضربة المزدوجة . كيف يقابلان ولدي المائتين ! ماذا يقولان لهما !

تراءت لبوجريس نظرات الولدين الغائبين وهي تسأل : « ولماذا لم يمت الا والدانا ؟ .. ألم يذهبا ضحية اهمالكم ؟ » وتمنى بوجريس لو يموت قبل ان يرى النظرات سائلة مشككة ، فاقدة ثقتها المولودة معها بالقسيس وبشخصه ! شاء بوجريس ان يموت ليبرهن لولدي اخيه ان موت والديهما كان قضاء وقدراً لا اهمالا ، وان ما يوجد من الاكل يوزع على جميع اهل البيت بالسواء . والقسيس كانت تثقل عليه الهموم من ساعة الى ساعة ، ويدين نفسه مرات كل يوم ويعتبرها المسؤولة عن كل ما يحدث . ولكن بونا الياس يجور كثيراً على نفسه ! كيف يجوز ان يكون مسؤولا عن حالة لا طاقة له عليها . كان يعتمد على موسم القز فجاءت ظروف الحرب تقتله ! كان يعتمد على البقرات فجاءت الدولة تصادرها مع بغل اخيه بو سعيد . كان يعتمد شغل اولاد اخوته بالمياومة فامسى شغل الفاعل لا يطعمهم « وقعة » في

النهار ! حتى الارزاق لم تعد بالامكان فلاحتها فقلّت اغلالها ! أيكون بونا الياس مسؤولا عن كل ذلك ؟ في الحقيقة لا ولكن في نظر بو طنوس نعم

يوم الاحد سحب القسيس رجليه سحباً الى الكنيسة . واجتاز بيوت القرية المهجورة، وروائح الموتى المقبورين قرب بيوتهم، على وجه الارض تقريباً، تملأ الفضاء . وصغار الاولاد شاردون من بيوتهم، بقوة الجوع . يفتشون عن قوت بين الاعشاب، حول البيوت، في المزابل ! حتى ان من لم يتعود هذه المشاهد يوماً بعد يوم يخيل اليه انه في قرية اموات حركهم زلزال من اجداثهم فهاموا على الارض جائعين تائهين !

ومن رق قلبه ورهفت عواطفه وعجز عن المعونة حجب عينيه عن النظر، كي لا يجري حنان قتال من فؤاده، وانصرف هارباً، ضنيناً حتى بالعاطفة، لان جسده الواهي قد يسقط تحت امواج المحبة .

قطع بونا الياس طريقه المؤدية الى الكنيسة ولم ينظر الى احد ! ما عساه أن يفعل من اجل الجياع، هذا الراهب الجائع ! لو كانت ايام الصيف، ايام العنب والتين، لقاد هذا الجيش المبعثر من الجياع الى البستان وسمح له بأن يأكل آخر خصلة، وآخر تينة ناضجة ! ولكن الصيف بعيد ! بعيد ! وليس في وسع بونا الياس الا ان يصلي من اجل خلاص رعيته !

وصل الى الكنيسة بعد ان تفطر فؤاده مئة مرة ومرة من لمحات محزنة كان يغيّر الطريق ليهرب من قساوتها، ولكنها كانت تنطبع بلمح البصر في اعماق نفسه .

من يدق له الجرس !

دق الجرس ؟ لم يسمع في تلك الناحية منذ اسابيع ! لم تسمع الا دقات الحزن المتواترة ساعة بعد ساعة ! فالقرى المجاورة كلها في مأتم دائم، كأن الناس على موعد في القبور !

قبل ان يأتي احد الى الكنيسة، وصل بوطنوس معكزاً على عصاه . وكان في وجهه خبر، فالاخبار كثيرة في هذه الايام . بين مساء وصباح، بين طيات الليل، تحدث كل يوم اشياء مخيفة . امهات يهجرن رضعاءهن ويهمن في الدنيا مفتشات عن القوت في كل مكان، ان اخباراً من هذا النوع تملأ الاسماع،

ولكن بو طنوس لا يفكر بكل ذلك ، بل يفكر بطريقة ينقذ بها حياة القسيس المسكين واهل بيته الباقين ، فهو يراهم سائرين الى القهر حتماً اذا تركوا الى نفوسهم .

— انتنتظر المصلين يابونا الياس ! صباح الخير .

— اسعد الله صباحك ياعمي بو طنوس . ايجوز ان نبقى يوم الاحد بدون قداس؟ .

— الله لايحاسب في هذه الايام يابونا ! ان يأتي احد الى الكنيسة ! قد تأتي ام طنوس وبو عبدالله وام يوسف والمختار . اتقدس ثلاثة اشخاص ؟ ... من يقدر ان يجر رجليه الى الكنيسة ؟ .... على كل حال لننتظر برهة من الزمن . اجلس هنا لاحاكيك كلمتين ! ان حادث بوموسى ، يابونا الياس ، لايذهب من بالي ابداً! ايجوز ان يموت جوعاً هذا المسكين بعد ان غذى الارزاق بلحم كتفيه ، وزهرة شبابه ؟ ايجوز يابونا الياس ان يتشرد اخوتك واولادهم بينما ارزاقكم كثيرة : يمكنكم ان تبيعوا ، يمكنكم ان ترهنوا ، يمكنكم ان تستدينوا ، يمكنكم ان تفعلوا اشياء كثيرة قبل ان تموتوا يابن عمي ! مانفع الرزق اذا متُّم كلكم ؟

« لوكنت سمعت مني وزرعت العام الماضي لكنتم الآن بالف خير . ولكن عنادكم ، وتمسككم بهذه الارض الفانية سببا لكم كل هذا التعتير .

— بحياتك ، ياعمي بوطنوس ، لاتتهمني بامور انا برىء منها . هل الارزاق تخصني انا لاتصرف بها كما اشاء؟ الا تعلم انهم يقولون في داخلهم « يوم شغل من يديه ولا عام من عمره » . انت تظن ان كلمتي مسموعة ؟ ! كلمتي مسموعة عندما اشتغل وآمرهم بالشغل ، اما عندما اطلب زرع الرزقات ام رهنها ام بيعها ، فانك تسمع منهم لهجة جديده . خلّنا مستورين يا عمي بوطنوس! أنا افعل ما تريد ، ولكن أقنع بوجريس . لولاه لكنا زرعنا قسماً من الارزاق هذه السنة ... من جهة ثانية من كان يعلم ان الحالة تصل الى هذه الحد ؟

— « اسمع يابونا الياس : هذا النهار سيمر « البيك » من هنا . وهو يدين المنطقه كلها . اهل بيروت لايسترهنون املاكاً في الجبل ، حتى ولا يدينون الا افراداً قليلين من اهل الجبل . اما « البيك » فيعطي الكل . هو يظلم بالفائدة . ولكن ما العمل ؟ لايوجد غيره ! واذا وجد فأظلم منه !

— كم تظن انه يعطينا على بساتين التوت ؟

— يعطيكم لا اقل من مئتي ليرة تركية على سنة ، وبعد السنة يغير الصك ويمدد الوقت سنة اخرى الى ان تنتهي الحرب .

— وكم تكون الفائدة . سأل بونا الياس وهو يهز رأسه بحزن .

— يعمل صكاً بثلاثماية ليرة عثمانية ذهباً . طبعاً هو يظلم كما قلت لك ، ولكن متى انتهت الحرب الله يفرجها !

— يعني اذا لم ندفع له بعد سنة ، يغير الصك لسنة جديدة ويضيف خمسين بالمائة ، فيمسي علينا اربعماية وخمسون عثمانية ذهباً ؟

— هذا صحيح . ولكن ليس بهذا يجب ان نفكر الآن . بل بانقاذ ارواحنا من الموت ! لا يمكن ان تحصلوا على شروط ارحم ، كل المرابين اظلم من بعضهم ! ولا يوجد في هذه المنطقة كلها الا اثنان او ثلاثة يدينون !

— سوف اتكلم مع بو جريس وآتي لعندك اليوم . فليفعلوا ما يشاؤون ، انا لا اقاوم ، انا لا اطلب شيئاً ، وعندما يستثقلوني انصرف الى ديري . قد فكرت بذلك من ايام ولكن كيف اتركهم في هذه الايام اللعينة ، كيف اتركهم بعد هذه المصيبة ؟ !

— يجب ان تأتي اليّ قبل ان يمر « البيك » والا تضطر ان تذهب الى ضيعته بعدئذ . سوف يمر قبل الظهر .

« على فوقه : ام طنوس وصتني لارسل لها مريم اذا ذهبت لعندكم ، دعها تأت اذا ارادت ، الى اللقاء الآن ...

— مع السلامة ، ياعمي بوطنوس ، اشكر عواطفك ، انت دائماً تشملنا بنظرك !

— يا ليتني اقدر ان انفعكم بشيء . خبزنا اقل من كفاف يومنا يا بونا الياس الله يساعدنا .

وانصرف بونا الياس يحسب ما تشتري مئتا ليرة من الطحين في الوقت الحاضر ويفكر فيما اذا كان يكلم بوجريس في امر لن يسلم به .

« على كل حال ، قال القسيس في نفسه ، يجب ان ارفع المسؤولية عن ضميري . يجب ان اطلعه على ما قاله عمنا بو طنوس وليفعل هو ما يشاء . ان عيلة بوطنوس مؤلفة من اربعة اشخاص ، والدولة لم تصادر فدانه ، وهو ميسور بما ارسله ولده له قبل وقوع الحرب . حتى خلال هذه الحرب جاءه منه دفعات عديدة . فاذا تدين مئة او مئتي ليرة يمكن ان تسعفه قليلاً ويمكن ان يدفعها حالا بعد الحرب بما سيرسله له ولده . ولا شك ان البيك يهاوده بالفائدة اكثر منا . اما نحن فما عساها ان تفعل معنا مئتا ليرة ، ورطل الطحين يساوي اثنتي عشر ليرة ، وعيلتنا تعد الآن ثلاثة عشر نفساً ؟

أنوقع حالنا تحت خمسماية ليرة ذهبية من الدين لنقتات عشرة ايام ؟ وبعد العشرة ايام ماذا نأكل ! لا شك ان بوجريس سيرفض وسيستهجن اقتراحي .

لم يكن بو جريس ، في الآن الاخير ، يقوم بشغله كما كان من قبل . فبعد ان صادرت الدولة كل ابقاره العمالة شيع في المنطقة ان الدولة سترد الأبقار لأصحابها فانتظر آملا ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . ولما يئس من اعادة فدانه العزيز عليه ، وفكر بشراء غيره ، كانت الابقار العمالة امست قليلة جداً ، ومهددة في كل حين بالمصادرة وكانت يده امست فارغة . لم يبق الا مجرومة ذهبية واحدة في صندوق ام جريس : هي الحيلة والفتيلة وقد بقي بو جريس مواظباً ، بالاول ، على العناية بادوات الفلاحة ، فلا يمضي اسبوع الا ويستعرضها في القبو واحدة واحدة ، ولكن حالته اليائسة بعد تشتت اهل بيته ، انسته كل شيء ، وجعلته مستسلما الى الخمول والقنوط . هو قابع في بيته اكثر الاحيان ، يشقف الحطب للوقيد ، لم يبق الا الفأس سالمة من كل ادوات عمله ، واصبحت افكاره بعد ان رأى من الفواجع اليومية في قريته ، تتجه الى عالم بعيد .

كل ما بقي عنده من المواشي هي الجدية الصبحاء ، بنت المغازلية البرصاء ، التي كانت تحلب رطلين واكثر ، وهي حبلى ستخلف في شباط ، بعد اسبوعين او ثلاثة . لقد بقاها بوجريس رغم الحاجة لبيعها ، اولا طمعاً بحليبها وثانياً حفظاً لنسل أمها المشهورة بجود ضرعها ، ومن ثم هو لا يقدر ان يعيش بدون سائمة ، هو يتسلى بها .

يمرحا كل يوم ساعة في الصباح وساعة قرب الغروب وينظر في الوقت نفسه ، ارزاقه من تعدي الناس في هذه الايام التي علمت الناس السرقة .

وصل بونا الياس الى البيت فوجد بوجريس يشعل النار وامرأة اخيه تنقي قليلاً من الفصولية المسوسة لتطبخها شوربة ، وقد سمع امرأة اخيه تقول وهو داخل في الباب :

اتظن اننا « نهدّي » كثيراً في هذه الحالة ؟ اولادنا لا يأكلون ربع اكل . يوفرون اللقمة عن فمهم ليقوّتونا بها . ولكنهم يضعفون من يوم الى يوم ! الصبيان يوفرون للبنات ، والبنات يوفرن لنا ، واخيراً ؟

— اخيراً ؟! اذا بقيت الحالة على ماهي ، نحن سنموت والله يدبر امرهم ! هم شباب وصبايا لا يغلّون بمعاشهم .

— ما هذا الاستسلام لليأس يا بو جريس ؟ هذا ليس شغل رجال ، ولا شغل ارباب بيوت مثلكم .... هذا سلفي عاد من الكنيسة

صباح الخير يا سلفي ، تفضل ، اسمع حديث اخيك ! .

— صباح الخير ! ماذا ؟ — .... ما جرى ؟ ... سمعت آخر الحديث .

— انموت جوعاً والصنوبر عندنا يملأ الارض والسماء ، لماذا لا تقطعون ؟

— ماذا تقولين يا مرة ! قال بو جريس بحدة ، الدولة تقطع كل شيء وتصادر كل شيء وتأخذ القنطار بنصف ليرة تركية ! لقد قطعت نصف الحرش ولم تدفع شيئاً بعد . اولادنا يقطعون حرشنا بأيديهم ويقدمونه هدية للدولة ! يا الله ماهذا الظلم ! ما هذا الجور ! اتظنين الحق معك اذا كنا لا نحكي ، ولا نهمهم ؟ لنا الان خمسون ليرة على الدولة والى الان لم تدفع بارة ! ام ان المقاول قبض ولا يدفع من يعلم ! وماذا نقدر ان نفعل ! اقل اعتراض يكون جزاؤه السجن او الموت ! اتركينا في همنا يا ام جريس ! اطبخي طبختك ولا تحمري بالوجه ! ....

— الان يا اخي كنت مع عمنا بوطنوس . وقد لامنا كثيراً على تهاملنا وتقاعدنا عن تدبير امورنا قال بونا الياس .

— طبعاً لا تنتظر الا هذا من عمنا بو طنوس ! هو يقطّع دائماً من جلد غيره !

— لا ! روّق طبعك قليلًا ! بو طنوس يحبنا يا اخي ، وانت تعلم ذلك .

« قال لي ان الشيء الوحيد الذي نقدر ان نفعله الان هو ان نتدين على ارزاقنا ويكون الدفع بعد الحرب ، ما رأيك بذلك ؟ »

— هذا احسن رأي ، عجلوا بذلك قبل ان يذهب اولادنا من يدنا ! ....

— يا الله ! ياالله ! وقعت البقرة كثر سلاخوها ! . قال بو جريس بحمق ، فكروا ياناس قبل ان تحكموا وتلوموا وتظنوا اني غشيم انتظر اراء عمنا بو طنوس والمختار لأتدبر . من يومين كلمني المختار بالشيء نفسه وقال لي ان البيك يدين وان الشيخ بولس والشيخ حنا يديننان ايضاً . اتريدون ياناس ان نخسر كل املاكنا لنعيش عشرة ايام زيادة ؟ .... قولوا لي ! ... قل لي يا بونا الياس ! انت الذي تأكل جسد الرب كل يوم ! اتريد ان نخسر اتعابنا ودم قلبنا نحن العشرة ، مع بو موسى في تربته واتعاب ابينا وجدنا لنأكل عشرة ايام ثم نموت ؟ .... اذا كان ضميرك يطاوعك بذلك انا افعل ما تريد ! ان ما يديننا اياه المرابون السلابون ، السراقون ، لقاء رهن ارزاقنا كلها ، سيشتري لنا ، خمسة عشر رطلًا من الطحين نتقوّت بها عشرة ايام فقط : وهذا المال قد يصبح الف ليرة ذهبية بعد الحرب ، سنضطر ان ندفعها او ان نخسر ارزاقنا كلها .

«لا ! انا افضّل ان اموت . واذا مت مع اولادي فسأورث الكنيسة كل هذه الارزاق ولا اعطيها لمراب نهّاب .

«الا تعلمون ان هؤلاء اللصوص الثلاثة يملكون الان نصف مرياع ! وكل الذين رهنوا املاكهم ماتوا !

« الله فقط يمكن ان يبقينا احياء يابشر ، لا ورقات المرابين ولا الزرع ! ما العمل اذا كانت السماء والارض تحاربان الناس ؟ صادروا مواشينا ، قتلوا مواسمنا ، قطعوا احراشنا ! ولو كنا زرعنا ، ربما يحصدون زرعنا ! فالذي يقطع احراشك يحصد زرعك ، بدون شك ! ... اطلبوا من الله ان يقوي اولادنا ويعيد البعيدين عنا ، واستسلموا للعناية فهي تدبر امورنا . واذا متنا فلنبق شيئاً لمن يبقى من اولادنا . انفعل كالغيلان ؟ ان من يأكل ميراث اولاده كمن يأكل اولاده ! عندما

نموت يفعل ابناؤنا ما يشاؤون !

سكتت ام جريس ولم تزد كلمة . شعرت كم يتألم زوجها وكم يكبت من الآلام والهموم في قلبه . والقسيس اقتنع بصحة ما قال اخوه . ولم يقدر ان يبدي اي رأي جديد . بل قال لامرأة اخيه : « ام طنوس تريد ان تذهب مريم لعندها لا اعلم ما تريد منها . هكذا قال لي بوطنوس . »

— اظن اني فهمت ما تريد امرأة عمنا ، سأرسلها بعد الظهر .

XVII

البؤس منتشر في الارياف الجبلية كانه يلازم الاثير ويدخل مع الانفاس . قل ان ينجو بيت من ظله الثقيل على الصدور . فهو يدب الى الاحياء في بيوتهم كما تدب الرطوبة الى الاموات في قبورهم ! وقد حوّل البيوت الى اجداث ، اذا تحرك فيها الناس كالاشباح ، فليسيروا ببطء قاس الى الموت المحتم !

والناس انحط بعضهم الى حالة كانها الذهول الابله ، لايعون ولا يفعلون شيئاً ، بل تقذفهم الى هنا وهنالك نزعات غريزية تفتش عن القوت باللاوعي الخامل الغافل وبعضهم ولّد عنده الجوع نوعاً من القساوة الكلبية ، الضارية ، يتهالك على القوت منتزعاً ، ناهباً ، سالباً ولو كان القوت في حلق رضيع جائع ! فالام تلاشت من قلبها الامومة المقدسة ، فهي تنظر بشراسة الى رضيعها وتود لو تمتص هي نفسها حليب ثديها وتعيش ! والاب اندثرت من رجولته الابوة والمروءة : فهو يلتهم كالذئب الكاسر ما بين يديه من كسر يابسة ، عندما يرى طفله اتياً نحوه .

الحب والحنان والرأفة وكل العواطف والفضائل المنبثقة من القلب البشري الكبير غارت في ايام الجوع الطويلة ، وسار الانسان ، المتوحش من جديد ، على الارض الرحبة ، الكريمة ، وحشاً مفترساً ينهش ، ويفتك ويمزق بضمير جامد ، متصلب ! واذا امتلأ جوفه المجوع نام ملء عينيه كانه ما ارتكب جريمة !

ينظر الناس بعضهم الى بعض كأنهم في حلم مبهم ، غامض ، أوفي دغشة لاتتبين فيها الوجوه . او كانهم تفارقوا من اعوام وعقود ، فتغيرت وجوه وتحولت هيئات

واجسام ! واذا عرفوا بعضهم تراهم جامدين لا يتكلمون ، فتخالهم عادوا مراحل آلاف السنين الى عهود البكم واللاشعور !

فالعشبة النامية على حفة الطريق ، تبعث فيهم رمقاً شحيحاً ، جزاءً من ثانية حياة ، هي اشغل لفكرهم واجذب لقلبهم ، ولكل ما في الانسان من سمو والوهية من اخ يتألم ، او اب يتأوه او صديق يموت !

يا للانسان الجائع ما اظلمه على نفسه ، وما افتكه بسموه ، وما اقساه على ضميره وقلبه !

ساعة الهام من الناصري على جبل الزيتون تجري من جيل الى جيل ، ومن رسول الى رسول ، في شرايين القلب البشري ، فتفتح في رحابه انهار الرحمة ، والحنان والمحبة ، وتغرق مدنية القساوة والانانية والشهوات ، وايام من البؤس والشقاء تغيض كل ينابيع قلبه وانهاره ، وتضعه شبه انسان حقير ، ذليل ، ولكنه قاس ، يسفح كل كنوز نفسه الغالية لاشباع جوفه الفارغ !

وساعات وحي من نبي الصحراء العظيم توقظ كل ما في الانسان من مثالية وشجاعة وانطلاق فتدك الاوثان المقدسة كانها دمى اطفال بلهاء ، وتبعثر القواد والفاتحين كانهم صبيان يلعبون وتقوض الممالك كانها بيوت من القش واهية ، وتبني دولة الروح والمادة ، وايام الجوع تمسخ كل الامجاد ، وتبعثر كل الاماني وتعقم كل الآمال !

مرياع ! قد دنت « مرافعك » المنتظرة كل عام ، بل هي على ابواب اوانها ! فالها تمشي باقدام خرساء ، خائفة كانها اللص في ليلة ساكنة ؟

ولكن من يسمع في مرياع النائمة ، المنازعة ! من مئات سبع من النفوس لم يبق سوى مئتين ! نصفهم يقاوم الموت باللاعنف والاستسلام ، تتقطع انفاسه زفرة زفرة كأن الموت يختبر جلد الانسان الجائع على البقاء ! ونصفهم لا يريد ان يموت ! يريد ان يبقى ولو ثا كلا ، ايماً ، يتيماً ، دفيناً في الاحزان والاتراح طوال اعوامه الباقية

لن تبقى الايام حربا جوّاعة ، ظالمة ، يقول المنازعون ، بل ستنتهي وتعود ايام سرور وبهجة ولو مثقلة بذكريات النكبات والفواجع !

لن تبقوا انتم ، يا نصف المئتين ، الا لترزحوا تحت اعباء نكباتكم ، والا

لتسجلوا ايام المظالم في ديارکم ! من يشعر بدنو «المرافع» ؟ليست القرية فقط كاوراق اشجار في رياح قالعة لعوب ، بل العائلة تفككت في جسدها وقلبها ، ولم يحدث التفكك في اعضاء عائلة مشردة تناءى افرادها وتناسوا ، بل في العائلة المتدانية ، تحت سقف واحد .

افراد العائلة الحبيبة الواحدة ، وقد شدهم عروق دمائهم وجمعتهم عواطف قلوبهم ، قد امسو اعداء فيما بينهم ، اعداء على كسر يابسه ، على كمشة من طحين الشعير الاسود ، على بقية من الدبس المحمض !

لم يبق الاب ابا ، ولا الاخت اختاً ، ولا الشقيق شقيقاً ، ولا الابن ابناً ، بل كل واحد منهم هو مزاحم لقمة تسد الجوع برهة وتطيل العمر زفرات !

قلب بونا الياس الفياض منذ جيل على قرية كاملة بما فيها من بشر وشجر ، هو ايضاً قد تصدع ، وكاد يزرح تحت اثقال محبته ، وحنانه ، فلجأ الى النسك الدائم ، الى السقيفة في « بستانه » .

احس ان اوتار قلبه ، وهي قصله بكل قلب في القرية ، تنقطع ، وتندثر واحد بعد الآخر كأنها من عنصر قابل التبخر والتلاشي ، فهاله ان يرى ، بام عينه ، ما حاكته عواطفه في جيل يفنى على الرغم من ارادته يوما بعد يوم ، فهرب من المأساة المتمثلة على مسرح قلبه ، وانزوى في كهفه بعيداً عن الناس .

لقد اندثرت كل العواطف ، وصار الانسان ينظر الى المنازع او الى الميت الهاوي جانب الطريق كعدو مزاحم قد تخلص من اسنانه الآكلة .

الضحك وكل علامات البهجة قد اندثرت من محيا الانسان .

اجل لقد هجر بونا الياس بيت ابيه وجده عندما امست قواه خارجة عن نطاق ارادته ، عندما صارت عواطفه تنطفىء في عجزها وبكمها كما تتلاشى احلام الاطفال في المجهود الازلي ، عندما امسى قلبه يغمغم المحبة غمغمة العاجز الواني .

كان يعيش مع البشر ليغدق عليهم كل ما في كيانه من الحب والتفاني ،

ليوزع عليهم نتاج قلبه الغني الكريم ، فما سكناه معهم الآن الا ليشمئز من بخل لا يريده ، وشح لم يعرفه في نفسه . اذا لازم الناس الآن سيكون ثقلاً عليهم فيمحو من خيالهم ذكراه الماضية الجميلة . اذن فليستودع الله اهله وابناء قريته ولينعزل عن دنياهم الى الابد ، او الى ان تحدث اعجوبة الخلاص .

وهكذا كان . منذ اسبوع ينقطع القسيس عن الناس في سقيفة البستان . فقد نقل الى هناك بعض امتعته الرثة ، وجعل من ذلك الكوخ الصغير مسكنه الدائم وملجأ ايام قد تكون الاخيرة !

أي نفع لوجود بونا الياس بين قومه بعد ؟ هم لا يطلبون محبة ولا صلاة ولا عطفاً ولا مشحة ساعة موتهم ، بل هم لا يريدون الله ولا يذكرون وجوده !

وما عساه ان يقدم لهم هذا الراهب المسكين ! بيته خاو واهله يموتون ، كرومه عارية حتى من اوراقها ، يده قصيرة لا تطال عوناً من أي مكان !

عندما وصل بونا الياس الى منفاه احس انه انسلخ بكليته عن العالم واتجهت افكاره نحو الله ، هذا الاله الذي لم يبق له من ملجأ غيره . ودبت حرارة الايمان المتأصل في ذلك الهيكل المتهدم فخاطب القسيس الهه قائلا :

— يا اله الضعفاء ، والمساكين ، واليتامى ، والمنكوبين والمظلومين ، اين انت ؟ يا منبع الرحمة والمحبة والحنان هل جفت فوارة نعمك ومراحمك عن هذا الشعب البائس ؟

« يا اله السماء والارض هل قضيت على الانسانية لتريد محوها من الوجود ، بالجوع والعري والامراض ! لا لست اله النقمة ، ولا اله الثأر ، فما السر اذن في هذه الحالة المخيفة ؟

« ابيقى الضعيف الورع مطية للقوي الجشع ؟ ام هي مشيئتك تهمز الضعيف بالظلم ليستجمع قواه ويدفعها الى التحرر ، ويطيل حبل التساهل للظالم عله يرعوي ويستنير !

« يا الهي ارحم هذا القطيع الصغير ونج ضعفه من انياب الموت الفتاكة ومن براثن الظالمين الناهشين

« لقد خارت قواي وها انا اترك عبيدك المظلومين خاضعين لمشيئتك مستسلمين لعنايتك ! »

في تلك الاثناء ، بعد انقطاع بونا الياس في البرية بأيام مرض بو جريس بالحمى ، واشتد عليه المرض فذهبت مريم تخبر عمها بو طنوس بالامر . وكانت مريم حافية القدمين ، تستر عريها ستراً وتمشي بما تبقى في كيانها من كبرياء وعزم الفتوة ! فراع بوطنوس ان يرى الفتاة بحالة كهذه وهو كان ينظر اليها دائماً نظرة الكنة العتيدة وكان لها في قلبه عطف خاص . فادار وجهه ولم يدعها تراه يمسح دمعة افلتت من عينيه ثم نظر اليها بحنان وقال :

— الحميات معروفة اليوم يا مريم . ابوك معه تيفوس بدون شك . ابقي هنا عندنا تخلصي من العدوى ! بل ستبقين هنا الى ان تنتهي الحرب او نموت كلنا ! ابوك يريد ان يموت بل يريد ان يميتكم كلكم معه قبل ان يبيع توتة واحدة ! ليس لي سلطة عليه ، ولكن الظروف تخولني ان احجزك هنا وان ادبر امر شقيقتك حنة . اما الرجال فلا انا قادر ان اعولهم ولا انا املك سلطاناً عليهم ، الله يدبرهم ! والقسيس ماذا يفعل ؟ »

— عمي القسيس يعيش وحده في السقيفة منذ اسبوع . انا آخذ له أكلا عندما نطبخ وكل مرة الحّ عليه بالعودة الى البيت فيعدني ولا يفي .

— لماذا لا يعود الى ديره هذا القسيس طالما يريد ان يهجركم ؟ يا الله ! ما هذه الوقعة مع هؤلاء الناس ! انهم يريدون ان ينتحروا ، سوف ارى اذا كانوا يأخذون الدنيا معهم ! على كل اياك ان تعودي الى البيت ! امك تخدم اباك وسوف تأتي حنة معي ايضاً »

وتوالت الايام في السقيفة فكدس مصائبها وهمومها على منكبي ذلك الشيخ المتصدع الفاني ! لم يمض عليه شهر في منفاه الصغير ، بل في مملكة عزلته وانحلاله ، حتى كانت الحمى فتكت ، يساعدها الجوع ، باخيه بو جريس وامرأته . وكانت الضربة قوية على جريس ، الى حد انه لم يتحمل البقاء تحت اثقالها اليومية ، فاخذ ما كان باقيا من امتعته وهرب الى السهول . تلك السهول التي لم ترد واحداً بعد من

اهله الهاربين .

لقد هدّم بيت الخوري الياس القديم ، والارزاق التي كانت تسوسها عشرات الايادي وتسهر عليها عشرات العيون سيّبت كانها حزون قاحلة . مريم عند عمها بو طنوس ، حنة في المدينة ، والبيت الذي كان يغلي بالنشاط والحياة منذ اجيال امسى خاويا تولول فيه الرياح .

وبونا الياس ينسي البشر وحياتهم يوما بعد يوم ، ولولا مجيء مريم من وقت الى آخر حاملة اليه قليلاً من القوت وكثيراً من فواجع القرية ، لكان عالم الناس امسى اثراً مندثراً من خياله .

وهذا الصباح طلق بونا الياس كل البشر طلاقاً نهائياً كاملاً . فقد جاءه بوطنوس غاضباً ، موبخاً ، مهدداً ، محتقراً ، وقال له بعد موعظة طويلة : « اذا كنت ما تزال كاهناً ، فيك شيء من التقى وبقية من الطاعة لقوانين رهبنتك ، ومن الاحترام لهذا الاسكيم الرهباني يجب ان تعود الى ديرك ، فهو ملزوم بك ، بل هو احق بك من هذه البرية وهذه القرية . اما الآن فماذا تفعل هنا ، اهلك لم يبق منهم احد ، واهل قريتك ماتوا ويموتون كل يوم وانت تعجز عن مساعدتهم ، وابنة اخيك لاتقدر ان تخدمنا وتخدمك ! لاتظن يابونا الياس اننا مستثقلون بك ! ولكن اليس الاوفق ان تعود الى ديرك ، ثم متى تغيرت هذه الحالة وعاد من يبقى من اهلك في السهول تعود انت اليهم ! »

— « هذا صحيح يا ابن عمي ، هذا صحيح . انا ذاهب غداً صباحاً . بلغ الجميع اني ذهبت . وقبل الفجر اكون على طريق الدير . لالزوم ان اوصيك بهاتين البنتين ، قد لايبقى غيرهما من العائلة . لاترعج نفسك اكثر مما ازعجتها . الوداع ! قد صممت النية الآن . وان تراني هنا الا بعد الحرب . »

— « الله يرضى عليك ! صلِّ من اجلنا في ديرك ، وانا سوف اذهب لزيارتك اذا جرتني رجلاي . الوداع الآن »

وتعانق النسيبان ، ثم انصرف بوطنوس مرتاح البال مسروراً .

واحس بونا الياس عندما ودع نسيبه ان صلاته المباشرة بالانسان قد انقطعت . وان مجاري نفسه الى البشر قد تحولت الى الارض ونباتها لتصل الى الآدميين بالمداورة .

وشعر ان الطبيعة فتحت كل اذرعها واحضانها وطوّفت ينابيع عواطفها ؛ فغمرته كما تغمر الام وحيدها وهو على فراش الموت . واندمج بالطبيعة حاملاً الله في قلبه ومتوشحاً بالله في كل مظاهرها حتى احس انه اتحد بجوهو الوجود ، وعاد الى مصدر الحياة .

ثم نزع عن ضميره مسؤولية الناس وحولها الى الخالق ، وشعر ان عواطف الدم واللحم تغادره وتذوب في البشر . ثم تمثلت امام خياله صورة المستقبل فرأى ايادي الناس تتناول الاثمار من اشجاره ، فتعزّى وفرح . ثم نظر الى الارض وقال : « كوني كريمة على ابنائي كما كنت كريماً عليك ، والا تقطع اشجارك وترمى في النار وتمسين عاقراً . »

ومرت ايام على الناسك وهو يتوارى في النهار بين الحرش القريب حيث يلتقط البقول ويشرب ماء القلود ، ويلجأ في الليل الى كوخه حيث يحكم سد النوافذ الصغيرة كي لا يرى وميض ناره .

وانقرضت في كيانه ملكة الجوع ، كأن الله النازل في قلبه ، وهو في هذا التحول ، قد وحّده مع الطبيعة المحدقة به ، فغدا يحيا من غبطة الموت البطيء في هذه الارجاء الحبيبة !

أيعود الى الدير كما وعد ! ؟ أيغدر بشعوره النبيل هذا الغدر الاخير بعد ان اخلص له مدى الحياة ؟ أيسلخ نفسه المتلاشية بسعادة في هذا الفضاء الرحب المغمور باظلال الليل ليكبل ساعاته الاخيرة بقوانين الانسان الغريبة التي تعبد الله في الغوغاء والفوضى !

الدير ! ما عساه يفعل في الدير ! ؟

الدير ! كان صومعة صغيرة في كرم بري بعيد يأوى اليه المتصوفون فحوله الانسان العادي ، وحولته القوانين الجامدة ، ومسخته الطقوس المتحجرة وثناً معدد الرؤوس متضارب المطامع !

الدير ! كان محجة يلجأ اليها الابرار بعد ان يقوموا برسالتهم لبني الانسان ، فيموتون معانقين الجوهر المتراءي لهم في ساعات انعكافهم على باطنهم ، فحوله

الانسان ، الوثني بغريزته ، الاستبداي بميوله ، الى سجن يُسام فيه الانسان كل انواع العذاب فيحارب الطبيعة البشرية ، ويتمرد على نواميسها الغريزية الصحيحة .

الدير ! منارة تشع منها كواكب من الشعور الانساني الالهي تحولت الى قصور اقطاعية تحتكر اراضي السذج وتستعبد الفلاح المؤمن !

ومن فوارة المحبة توزع لكل انسان بدون حساب ، تحولت الصوامع الى مصارف تبدل فيها الصلوات باراض وبيوت ومصاغ وكل انواع العقار !

ومن محطات برية للفلاحين والحطابين والرعاة والصيادين والتائهين ، يوزع فيها الناسك ما تملك يده ، تحولت المناسك الى قلاع تحرسها الكلاب ، ويسهر عليها الحراس المسلحون ، ويسقط على ابوابها الحديدية ايام الحروب ، الاولاد البائسون الجياع في الليالي المعتمة ، وعند الصباح يأمر الرئيس ، الحاكم المطاع ، بدفن الجثث ، فترمى في الحفر كما ترمى الكلاب المنتنة !

الى هناك يريد بوطنوس أن ، يرجع بونا الياس الناسك !

بهت بونا الياس ساعات ، يتأمل في صومعته الصغيرة ، وينتقل بفكره الى الدير حيث يطلب منه ان يذهب فلم يملك نفسه من القول :

« انا بين يديك يا الهي ! »

« إما ان تشد خطاي فأسير ولكن ضعيفاً ، ذليلاً ، عبداً الى سجن عذابي وبلواي ، الى الدير ! واما ان تلصق جسدي بهذه الارض فأموت ، ولكن قوياً كما شئت ان اعيش قوياً .

« اما ان تجرني كالمجرم الى منفى الرهبان اعيش فيه بعيداً عنك مهرولا مع تيار آلي لا يفهم ولا يعي ، واما ان تتركني اقضي ساعاتي الاخيرة لايفصلني عنك فاصل ، بل انام متوشحاً ليلك الهادىء او العاصف ، واستيقظ مستدفئاً بانوارك الغزيرة »

ولكن قد نسي وعده ساعة انصرف بوطنوس ، ساعة ارتفع عن عينيه ظل آخر رجل وتدفقت عليه انوار الوجود الصامت ، الناطق بالحرارة والعواطف ، كما يغمر الله ارواح اطهاره !

لا ! انه لايحب العبادة بالمقاييس ، انه لايريد الصلاة في ساعات معينة

كانه آلة تمتثل لقوة مادية ، بل الحياة في ضميره ، من فجرها الى غروبها النازل عليه الآن ، هي ترنيمة واحدة في شعوره ، والارض بكل مغانيها وزواياها هي معابد تفور الحياة والصلاة من رغامها وتحوم في اجوائها ارواح الله الخالده !

الله والانسان والطبيعة : منابع الاحساس للنفس البشرية السامية ، وغايات النفس الانسانية في كل ميولها وامانيها واهدافها .

والانسان مهما دق بشعوره وسما بميوله لم يدرك بعد حقيقة الحياة ، ولكن اناساً عاديين بمظاهرهم ، بسيطين بادراكهم ، ساذجين بافكارهم ، قد وهبوا نوعاً من الاحساس المرهف ، ينقلب الى تصوف صميم فيتحسسون جمال الوجود بشعورهم الصامت ويقفون قوة واصلة بين منابع الحياة واهدافها ويعبون من المصدر زاداً المعاد !

انما التصوف هو في قلب الانسان ، في ميوله وامانيه ورغباته .

متى كانت النفس دفقاً ابدياً الى الامام ومداً دائماً للعطاء ، ونوافل متتالية مدى الحياة ، ذلك هو التصوف .

متى اعطت النفس دائماً وهي ترتدي الفقر ، ومتى وهبت وهي تقول ليس عندي شيء ، ومتى ابتسمت بينما الناس يعبسون ذلك هو التصوف

ليس التصوف في ترديد الكلام بينما النفس فارغة من كل احساس وعاطفة ، بل التصوف الحقيقي في هذا الانسان البسيط بكل مظاهر الحياة والغني بكل مكنونات النفس ، هذا الراهب الذي يحمل الله والانسان والطبيعة في طيات نفسه .

لقد ذهل بونا الياس في ايامه الاخيرة عن عالم المادة ، فكأن كيانه تحول الى كمية اخيرة من الروحية ، تستبقي الجسد خادماً لها لتذوب في روح وجود لا يرى !

ولولا وجوده بين ذراعي الطبيعة لكان سها عنها كما نسي الانسان

وانطلق من الانسان الدابّ على مواطيء الناس سهم من الروحانية وصل الارض بالسماء ، فأحست تلك البقايا الرثة ، المتهدمة من انسان الامس انها تتحد بذات لا حدود لرحابه وافاقه .

وانعكف الناسك في حضن امه يفني ايامه الباقية . وبقوة النفس المجهولة والتي لا تحد ، كان يرى عناصر جسده تنحل ، وهو شاخص الى ما حوله من حياة

قلبه مفعم بما يتسرب اليه من انواع الغبطة المجهولة عند البشر . وكان كل فراغ يحدث في الجسد يفسح مجالا لدخول انواع جديدة من البهجة والسرور . بل كأن النفس كانت تعيّد تلك الايام عيد انتصارها الكامل ، فان الجسد يُضحى الى آخر نسمة من نسماته في سبيل سموها ورجوعها الى مقر ألوهيتها

واحس راعي الاشجار ان ساعاته الاخيرة تدنو من مرسى الجسد ، وان البستان ، كما كان مملكة ، سيكون رمساً !

البستان قد اكل نشاط يديه طيلة ستين عاماً ، والبستان سيمتص آخر عنصر من عناصر جسده .

سيبقى الجسد زوادة البستان الاخيرة تقدمها النفس في لحظتها الاخيرة . الارماس قد هجرت في هذه الحرب كما هجرت البيوت ، واكثر الموتى كانوا يلحدون في الارض المحدقة بمساكنهم .

اليجوز ان يشذ بونا الياس عن القاعدة الجديدة؟ وهل اعز على قلبه من ان يغمر جسده بهذا التراب الذي دغدغه السنين الطويلة بانامله ؟

وتطلع الى قنينة الزيت في الطاقة ، فوجدها ملأى بالسيال المخضوضر ، المنعش حتى بمنظره ، ذلك الذي سيضيء جسده الى ان ينطفىء وسيضيء لعينيه الى ان تغمضا انها ستكفي السراج الى ان تشرق شمس العالم المنير ، الذي لا يعرف غروبا ولا ظلمات ! ونظر الى الشحيمه وقال في قلبه همساً :

« كنت خطابي الى الله عندما كان الناس يبلبلون بالي وفكري ؛ اما الان فان الله امامي وفي قلبي ، وفي كل مكان ، يناجيني وأناجيه فلا لزوم ان اتكلم بلسان الناس ، بل لا لزوم ان اتكلم ابداً ، عندما يحس القلب وتشعر النفس ، على اللسان ان يخرس . »

ثم انتعشت هنيهة قواه الجسدية المطهرة فوقف على رجلين ترتجفان ومشى في البستان ينتقل من شجرة الى شجرة معتمداً على الشعاب ومتهدياً بها . وكأن الجوع أحيا ذاكرته واوضح كل الصور المنطبعة على الواحها ، فكان كلما وقف عند شجرة يستعرض نشوءها من حين غرستها يداه الى ان ذاق اول اثمارها ، وزار كل

منزل من منازل مملكته كان يودعه ويدعو له بالعمران الطويل ثم خاطب الاشجار قائلاً :

« لتكن اغصانك اكفاً ممدودة الى الابد تعطي كل سائل وتغذي كل جائع وتظلل كل تعبان ، وتروي كل عطشان »

ولما انهى زيارته عاد الى السقيفة ، فاخذ الشحيمة وفتش عن ورقة بيضاء بين اوراقها فلم يجد . وتفقد قطعة من قلم رصاص في جيبه من اشهر فوجدها . اذ ذاك فتح الشحيمة وكتب على اول صفحة منها وهي بياض .

« اذا لم يبق احد من اهلي ولم توجد وصية ثانية تنقض وصيتي هذه ، فاني اوصي بارزاق الخوري الياس كلها الكنيسة القرية ولفقرائها ولتكن هذه الارزاق واغلالها مرحمة لمن تعب واورث . »

القس الياس

وسمع الراهب همساً في داخله يقول : « اهكذا يكون جزاء من يكرس حياته لكم . ايحكم عليه في آخر ساعة بالعودة الى الدير ! » ولكن صوتاً داخلياً اقوى من الهمس أجاب :

« ستبقى هنا الى آخر نسمة جميلة من حياتك ، انك ستمسخ حياتك مسخاً ان انت تجر رجليك وتسير نحو ديرك فتموت اما واهياً على الطريق ، واما ألماً من سخرية الرهبان واستبدادهم . »

واحس ان الجسد يتهيب هذه القوى الجديدة ويخضع لنواميس غريبة ، مجهوله الجسد بقواه الجديدة صار آلة لا تخضع لنواميس العالم القديم ، ولا تذعن لملكاته المهيمنة من جوع وعطش وغيرهما ، بل غدا شمعة تضيء الى ان تفنى كل عناصرها !

وقد شعر بونا الياس بحالته الجديده المنتعشة فظن انها عارضة ، ولكنها على كل حال قوّته ليقول كلمته في موقفه القاسي وقد صرح في داخله لداخله : « لن اذهب الى الدير »

ومنذ تلك البرهة صار يحيا بونا الياس في مملكته حياة جديدة ، بل صار يفنى نوعاً جديداً من الفناء !

لم يعد يحب الاشجار كما كان يحبها من قبل ، فولادته الجديدة في شيخوخته

العجيبة ، المدهشة ، اعطته عواطف غريبة ، لم تكن من قبل الا وميضاً نحيلاً بين عواطفه . لم يعد ينتظر اثماراً ولا اظلالا ولا قيلولة صيف ناعمة من كل ما صنعت يداه بل هو ينظر اليها ويلامسها كما ينظر الشيخ الصالح الى ابنائه وهو على فراش موت قرير ، فيغمض عينيه بينما اصابعه تلامس يد واحد منهم ملامسة الوداع الهني ، لا تمسكاً بالحياة !

وتمركز عالم الانسان والنبات والجماد في مملكة بستانه ، وتمركز عالم الله في عمق نفسه ومن يزه كما اراه يجده همزة وصل بين الارض والسماء .

XVIII

على باب السقيفة ، في صبح نهار من ايام نوار المعطرة ، وجد هيكل الناسك تغمره اشعة من الشمس واظلال من اشجاره المورقة . لا تقترب منه الحشرات ، لان كل عناصر الجسد تلاشت ولم يبق للتراب والحشرات الا شبح من جلد يابس وعظام نحيلة

انطفأ وهو جالس على الارض ، يتكيء على عتبة مأواه ، تطفو على وجهه ابتسامة حية في جسد ميت ، ابتسامة فيها القناعة ، والصبر والعزاء وراحة الضمير !

وبعد مرور ثلاثة ايام على موته رأت الطير ، وهي مشغولة بحوك اوكارها ، شبح رجل وامرأة يحفران في الارض : هما بو طموس وامرأته ، كانا يواريان جثة الناسك قرب السقيفة ، في البستان الحزين على ابيه وامه .

بعد عامين من هذه الاحداث الموجعه ، بعد انتهاء الحرب الكبرى بسنة ، عاد جويس الى قريته . هو الوحيد الذين رجع سالماً من كل اهله الذين هجروا القرية ، فوجد مريم وحنة سالمتين ومتزوجتين ، وارزاق الخوري الياس مهجورة من سنين . القرية لم يبق فيها الا مئة نفس من الاحياء ، والباقون هاموا في انحاء البلاد او قبروا حول بيوتهم او في بيوتهم .

ولكن شخصاً واحداً كان باقياً على ما كان تماماً وذلك الشخص هو ابنة عمه سليمة .

وبعد مرور اشهر ، في صباح يوم من ايام نوار البهيجة ، كان جريس مع زوجته سليمة يقومان بدورة على الاملاك ، وهي ما تزال في اثوابها القديمة ، تغطيها ازهار الربيع كما تغطي الابتسامة وجه قلب حزين .

ولما وصلا الى البستان ، الى قرب السقيفة ، تبينا آثار رمس ازهر عليه الاقحوان وتدلت فوقه اغصان الزيتونة الكبيرة ، فسجدا وتمتم جريس مترحماً وقال لرفيقة حياته :

« طوبى لمن عاش للناس ومات لاجل حياتنا الجديدة »

وضعت في الميه وميه سنة ١٩٤٣

آ

2486

دار النهضة

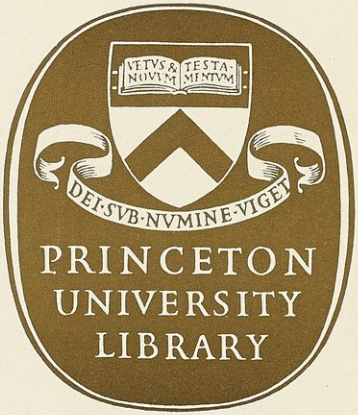

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY-AUG 1993
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 074474923